

تشكيل المكان في رواية (ساق الغراب) ليحيى امقاسم (دراسة وصفية تحليلية)

إعداد الباحثة
بدرية سعد عبدالله الهبيبي الحربي

حاصلة على درجة الماجستير في الدراسات الأدبية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة طيبة

المستخلص

أصبح العمل الروائي - بما يملكه من طاقات تعبيرية - مرآة تعكس الحياة بكل تفاصيلها وأبعادها ، فالجنس الروائي جنس أدبي متميز ، بقدرته على التعمق في تفاصيل الحياة؛ لهذا تعددت عناصر بناء السرد الروائي، وضمت المكان والزمان والشخصيات والأحداث والسرد والوصف، ويُعدّ المكان من أهم مقومات العمل الروائي ، لذا قام هذا البحث وعنوانه : (تشكيل المكان في رواية ساق الغراب: ليحيى امقاسم ، دراسة وصفية تحليلية) ، بمحاولة قراءة تشكيلات المكان وأبعاده في هذه الرواية ، بهدف اكتشاف ملامح المكان، وإظهار مدى ارتباطه ببقية عناصر الرواية الأخرى، بداية من الشخصيات والزمان والأحداث والحوار والسرد والوصف.

حيث أن كل هذه المقومات لا يمكن أن تستغني عن البعد المكاني في الرواية ، بل هي تؤثر فيه وتتأثر به ، وقد تناول البحث أيضاً تشكيلات المكان وأنماطه المختلفة ، بداية من النمط المفتوح والنمط المغلق ، وكذلك النمط الواقعي والمتخيل ، وهذا دليل على تنوع المكان في الرواية وامتلاكه للعديد من الأبعاد، بالإضافة إلى مناقشة التشكيل المكاني، وجمالية اللغة الشعرية في وصف المكان ، وقد خلص البحث إلى عدة نتائج كان من أبرزها: امتلاك الكاتب القدرة على التصوير والوصف المتميز لأبعاد المكان ، ولهذا اختار أماكنه بعناية ، حيث أسهمت في تصاعد الأحداث وتناميها ، وتحولت أسماء الأماكن إلى دلالات مشعة ومشبعة بالحياة، ومن أهم النتائج أن شخصيات الرواية قد تأثرت تأثراً كبيراً بملامح المكان ، وما ارتبط به من حكايات موروثة وممتدة عبر الزمن .

الكلمات المفتاحية :

الرواية- التشكيل المكاني- السرد – الوصف – الشخصيات الأحداث – الزمان .

Abstract

The work of fiction, with its expressive powers, has become a mirror that reflects life in all its details and dimensions, so the novel genre is a literary genre distinguished by its ability to delve deeply into the details of life. Therefore, the elements of constructing a narrative are numerous and include place, time, characters, events, narration, and description. Place is considered one of the most important factors in the narrative work, so this research " The Formation of Place in the Novel Saq Al Ghorab by Yahya Amqassem, a descriptive and analytical study" tried to read the formations of the place and its dimensions in this novel, with the aim of discovering the features of the place and showing the extent of its connection to the rest of the other elements of the novel, starting with the characters, time, events, dialogue, narration, and description. Since all of these components cannot dispense with the spatial dimension in the novel, rather they influence it and are affected by it. The research also dealt with the formations of place and its various patterns, starting with the open and closed patterns, as well as the real and imaginary patterns, and this is evidence of the diversity and dimension of the place in the novel. In addition to discussing the formation of the place and the aesthetics of poetic language in describing it. The research has reached many results, the most prominent of which was the writer's ability to depict and describe the dimensions of the place carefully, which is why he chose his places carefully, as they contributed to the escalation and growth of events, and the names of the places turned into radiant connotations full of life. One of the most important results is that the characters of the novel were greatly influenced by the features of the place, and the stories associated with it, inherited and extended over time.

Keywords

Novel, Place Formation, Description, Characters, Events, and Time.

مقدمة

أصبح النقد الروائي الحديث يعتمد على دراسة كل أبعاد الرواية ومكوناتها ، وقد أولى هذا النقد اهتماماً كبيراً بدراسة التشكيل المكاني ، لما له من دور وتأثير كبير في البنية السردية للرواية ، فالمكان من أهم العناصر التي تسهم في بروز جماليات النص الروائي، من خلال ما يتضمنه من أبعاد نفسية وتاريخية وعاطفية مؤثرة، والتي تُلقِي بظلالها على أفكار وأفعال الشخصيات، ومسار الأحداث وتطورها، بالإضافة إلى تأثيرها على لغة السرد، وطرائق الوصف ، وسوف تقوم هذه الدراسة برصد ملامح التشكيل المكاني في رواية ساق الغراب " ليحيى امقاسم"، ورصد علاقة المكان بكل عناصر البناء السردى، من شخصيات وأحداث وزمان وسرد ووصف .

وقد حاولت الدراسة تحقيق عدة أهداف ، منها: التعرف على البناء السردى للرواية، والتعرف على ملامح المكان وارتباطه بعناصر الرواية، وتسلط الضوء على طبيعة الإبداع الروائي ، والتأكيد على أن المكان هو الذي يصنع الإنسان.

وتحركات الدراسة في ثلاثة حدود ، أولها: الحدود الموضوعية، والتي التزمت فيها بأماكن الرواية موضوع الدراسة ، وما يتعلق بها من قضايا ، إضافة إلى الحدود المكانية، والتي تقتصر على الأماكن المذكورة في الرواية ، وأخير الحدود الزمنية، التي ارتبطت بزمن أحداث الرواية.

ومن الأسباب التي دفعت الباحثة لدراسة هذا الموضوع : ما يمثله من أهمية في تصور طبيعة المكان ، خاصة وأن الرواية تحتفي بالأماكن وتهتم بدلالاتها وتشكيلاتها، والرغبة في اكتشاف عالم يحيى امقاسم الروائي، كأحد رموز الكتابة الروائية في المملكة العربية السعودية ، وأيضاً النظر في واقعية الأماكن وتوثيقها من خلال الرواية.

أما منهج الدراسة : فقد تم اعتماد المنهج الوصفي التحليلي، كونه المنهج العلمي المناسب لتحقيق أهداف الدراسة الحالية، ويتم ذلك من خلال تحليل مفردات المكان، بالإضافة إلى استخدام بعض الإجراءات المنهجية والأدوات

البنوية؛ لأنها تسهم في إجراء تحليل متعمق للرواية، والتعمق في النصوص الأدبية واكتشاف العلاقات بين الوحدات النصية، مع الاستفادة من أدوات الأساليب الإحصائية.

وتنقسم هذه الدراسة إلى مقدمة وتمهيد ومبحثين، وخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات.

- **أما التمهيد:** فقد تناول مفهوم المكان عامة، و مفهوم المكان في السرد، ومفهوم المكان فلسفياً، ثم تناول المكان من وجهة نظر النقاد الغربيين والعرب، وتطرق إلى الحديث عن الفروقات بين بعضها البعض.
- **والمبحث الأول بعنوان:** (علاقة المكان بعناصر البناء السردى للرواية)، حيث رصد البحث علاقة المكان وأهميته في عملية السرد ، وعلاقاته مع (الشخصيات، والأحداث، والحوار، والزمان، والسرد والوصف).
- **والمبحث الثاني بعنوان:** (تشكيل أنماط المكان في الرواية)، حيث تناول المكان المفتوح والمغلق والمكان الواقعي والخيالي ، وانتهى البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج والتوصيات .

التمهيد

أولاً : مفهوم المكان:

يعتبر المكان أحد أهم المقومات والعناصر، التي يتكون منها السرد الروائي؛ فمن خلاله تتحرك الأحداث وتتطور ، وتظهر الشخصيات وتتجاوز ، ونظراً لهذه الأهمية فلا بد من تعريف المكان في اللغة والمصطلح؛ حتى يتبين لنا حدود مفهوم المكان ونتعرف على ما يميزه ، فالمكان وظيفة ودور كبير في الرواية؛ لأنه صانع و منتج للأحداث أو حاضن لها ، فلا حدث دون وجود مكان، بل لا رواية أو قصة بلا مكان.

- 1- **مفهوم المكان لغة:** لقد تعددت المعاني والدلالات للمادة اللغوية (م ك ن) في المعاجم العربية ، ومنها ما ذكره ابن منظور في (معجم لسان العرب)، حيث يقول: "المكان هو الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع

الجمع" ⁽¹⁾، ويستفاد أن المكان يعد في اللغة موضعاً، ويستخدم تحديداً للحيز الذي يتحرك فيه الناس .

ونجد لفظ "المكان" قد تعدد ظهوره في "القرآن الكريم" في مواضع عديدة منه : قوله تعالى ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ ⁽²⁾ ، وقوله تعالى ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ⁽³⁾ ، والكلمة تعني في هذه الآيات: الموضع ، وتعني: المكانة والقدر والمنزلة، والمكان بمعنى المنزلة أيضاً، كما ورد في قوله تعالى ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ ⁽⁴⁾ .

وكذلك ورد في (معجم المنجد): (مكان : جمع أمكنة وجمع الجمع أماكن : موضع (وهو مفعول من كون) ⁽⁵⁾، وجاء في (المعجم الوسيط): "المكان هو : المنزلة، يقال : هو رفيع المكان والموضع، جمع أمكنة" ⁽⁶⁾ .

فالمعاني والدلالات التي ظهرت لكلمة مكان في المعاجم اللغوية وغيرها ، تعني : الموضع والمحل والحاوي – أي الذي يحتوي الأشياء - والمنزلة والمكانة ، ولم يبتعد المعنى اللغوي كثيراً للكلمة عن مفهومها الاصطلاحي .

2- مفهوم المكان اصطلاحاً: تناولت العديد من الدراسات مصطلح المكان بالتوضيح والتحديد ، نظراً لأهميته وقوة تأثير دوره في العمل القصصي ، وقد عرّف بعض النقاد العرب في العصر الحديث المكان تعريفاً، يوضح المقصود منه في النص السردي الروائي بصفة خاصة، حيث تقول سيزا قاسم : "المكان هو الإطار، الذي تقع فيه الأحداث" ⁽⁷⁾ .

فالروائي وهو يتصور الأحداث التي يرسمها في القصة أو الرواية ، يحاول دائماً أن يضع هذه الأحداث في إطار مكاني ، حتى تبرز وتتجسد أمام المتلقي، ويستطيع أن

¹ محمد ، ابن منظور، لسان العرب، دار صادر-بيروت ، ط3، مادة: مكن ، ج13/ 414.

² سورة مريم، الآية: 22.

³ سورة مريم، الآية: 57.

⁴ سورة مريم الآية 75.

⁵ أنطون، نعمه ، وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط1، (بيروت ، دار المشرق ، 2000) ،

مادة: مكن، ص 1351

⁶ إبراهيم أنيس ، وآخرون، مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط4، (القاهرة، مكتبة الشروق الدولية،

2008) مادة : كون ، ص 806.

⁷ سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ، ط1، (القاهرة ، مكتبة الأسرة ،

2004)، ص 106

يتصورها بسهولة" وطبيعي أن أي حدث لا يمكن أن يصور وقوعه، إلا ضمن إطار مكاني معين؛ لذلك فالروائي دائم الحاجة إلى التأطير المكاني، غير أن درجة هذا التأطير وقيمتها تختلفان من رواية إلى أخرى، وغالباً ما يأتي وصف الأمكنة في الروايات الواقعية مهيمناً، بحيث نراه يتصدر الحكيم في معظم الأحيان، ولعل هذا ما جعل هنري متران "يعتبر المكان هو الذي يؤسس الحكيم؛ لأنه يجعل القصة المتخيلة ذات مظهر مماثل لمظهر الحقيقة" (8).

وفي كتاب: (جماليات المكان) حاول (غاستون باشلار) أن يضيفي على المكان صبغة إنسانية، على اعتبار أن الذي يعيش في المكان، هم بشر وأناس لهم حياتهم وذاكراتهم، فالمكان ليس مجرد مساحة لها أبعاد هندسية فحسب، وإنما في الوقت ذاته له أبعاد إنسانية، ولهذا يقول: "إن المكان الذي يجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً، ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر، ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز، إننا ننجذب نحوه؛ لأنه يكثف الوجود في حدود تنسم بالحماية" (9).

أما "حسن بحراوي" فيرى أن المكان هو "عبارة عن شبكة من العلاقات والرؤيات ووجهات النظر، التي تتضامن مع بعضها؛ لتشديد الفضاء الروائي الذي ستجري فيه الأحداث، فالمكان يكون منظماً بنفس الدقة، التي نظمت بها العناصر الأخرى في الرواية؛ لذلك فهو يؤثر فيها ويقوّي من نفوذها.. وتغيير الأمكنة الروائية سيؤدي إلى نقطة تحول حاسمة في الحكمة، وبالتالي في تركيب السرد" (10).

والمكان متنوع وله أشكال كثيرة يظهر من خلالها، فقد يكون صحراء ممتدة، وقد يكون غرفة بسيطة، فالمكان لا يعرف حدوداً في تشكّله، ويختلف كل روائي عن الآخر في اختيار تشكيلات المكان المتنوعة، ولهذا نجد الناقد عبد الملك مرتاض يقول: "قد يكون المكان الحيز الروائي ممثلاً في قرية أو مدينة، كما قد يتمثل في هضبة أو جبل، كما قد يكون طريقاً ملتوياً، كما قد يكون شاطئ بحر، أو ضفتي نهر أو جهتي البحيرة، أو

⁸ حميد لحميداني، بنية النص السردى: من منظور النقد الأدبي، ط1، (بيروت، المركز الثقافي العربي،

1991)، ص65

⁹ غاستون باشلار، مت: غالب هلسا، جماليات المكان، ط2، (بيروت، المؤسسة الجامعة للدراسات

والنشر والتوزيع، 1984)، ص 31

¹⁰ حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية)، ط1، (بيروت: المركز الثقافي

العربي، 1990) ص 32.

جانبى واد..، ويتسم الحيز الروائي في معظم أطوار مثوله بالجمالية، والإيحاء، ويتفاوت الروائيون في البراعة لدى بنائهم الحيز، ورسمه وتحديد معالمه، وجعله كما يتعامل معه في الرواية الجديدة طرفاً فاعلاً في المشكلات السردية، بحيث قد يستحيل إلى كائن يعي ويعقل، ويضر وينفع، ويسمع وينطق"⁽¹¹⁾.

وبناء على ما سبق فإن للمكان أهمية كبيرة في الدراسات الأدبية، فهو الذي يمنح العمل القصصي خصوصيته وتميزه ؛ ولهذا يقول غالب هلسا: "إن العمل الأدبي حين يفتقد المكانية فهو يفتقد خصوصيته، وبالتالي أصالته"⁽¹²⁾، ومن المؤكد أن المكان - فنياً وروائياً - يخلق عالماً موازياً للعالم الحقيقي ، فإذا كان المكان في العالم الواقعي يدرس جغرافياً، فإن المكان في الرواية يدرس فنياً وأدبياً، فالمكان في الأدب هو " الجغرافية الخلاقة في العمل الفني "⁽¹³⁾.

وأهمية المكان تنبع من ارتباطه الوثيق بكل عناصر ومقومات البناء السردى، فهناك عناصر مختلفة ومتعددة للبناء الروائي، كالشخصيات والأحداث والزمان والحوار ، ومن المؤكد أن المكان له ارتباط بهذه العناصر ، فمن خلال المكان تتحدد هوية الشخصيات ، وأيضاً تتطور وتنمو الأحداث في الرواية ، وكذلك للمكان أهميته في عرض النواحي النفسية والمزاجية للشخصيات ، خاصة عند استخدام الكاتب لأنواع معينة من المكان لها رمزيته ودلالاتها ، فمثلاً الصحراء تعبير عن الامتداد والانتساع اللامتناهى ، في حين يعبر البيت عن الحميمة والتقارب والدفع الأسرى، وهكذا تتعدد دلالات و رموز المكان في الرواية، وهناك أهمية أخرى للمكان في أنه يحمل شحنات عاطفية واجتماعية ونفسية؛ لذا كثيراً ما ينظر إليه على أنه الهيكل، الذي يحمل باقي عناصر السرد، ومن خلاله يقدم الروائي للقارئ باقي عناصر العمل، من زمان وأحداث وشخصيات وغيرها.

¹¹ عبد الملك مرتاض، في نظرية الرواية: بحث في تقنيات السرد، ط1، (الكويت: المجلس الوطني

للثقافة والفنون والآداب، 1998)، ص130

¹² غاستون باشلار، جماليات المكان، مرجع سابق ص5-6

¹³ ياسين النصير، الرواية و المكان، ط1، (بغداد: دار الشؤون العامة، 1986)، ص18

المبحث الأول: (علاقة المكان بعناصر البناء السردى للرواية)

تتضح أهمية المكان في البناء السردى للرواية، من خلال شبكة العلاقات التي تربطه ببقية العناصر الأخرى المكونة للبناء السردى، وهذا ما سيتناوله هذا المبحث، الذي يولي اهتمامه بإبراز علاقات المكان، بالشخصيات والأحداث والحوار والزمان والسرد والوصف.

المطلب الأول: علاقة المكان بالشخصيات:

إن للمكان دور واضح في تحديد ملامح الشخصيات الخارجية والداخلية ، وهذا ما أكدت عليه سيزا قاسم في كتابها (بناء الرواية) ، حيث تقول: "فالمكان يعكس حقيقة الشخصية، ومن جانب آخر إن حياة الشخصية تفسيرها طبيعة المكان الذي يرتبط بها"⁽¹⁴⁾، ومن أجل محاولة فهم الشخصيات لأبد من الرجوع إلى ملامح المكان ومعالمه؛ لأن المكان عامل مساعد على التعرف على مميزات وخصائص الشخصيات ، يقول حسن بحراوي: "بالرغم من أن تقديم الأمكنة في الرواية يأتي مرتبطاً بتقديم الشخصيات، فإن هذه الأخيرة لا تخضع كلياً للمكان، بل العكس هو الذي سيحصل؛ إذ أن الأماكن - في هذه الحالة - هي التي سيوكل إليها مساعدتنا على فهم الشخصية"⁽¹⁵⁾.

ثم يضيف الدكتور بحراوي مؤكداً على أن المكان - أو سماه بالفضاء الروائي - يتأسس بناء على طبيعة الشخصيات، فإن كل ما تتميز به الشخصية، يعود في النهاية إلى طبيعة المكان ، يقول: "ومن هذه الناحية يمكن اعتبار الفضاء الروائي، بمثابة بناء يتم إنشاؤه، اعتماداً على المميزات والتحديدات التي تطبع الشخصيات، بحيث يجري التحديد التدريجي، ليس فقط لخطوط المكان الهندسية، وإنما أيضاً لصفاته الدلالية؛ وذلك لكي يأتي منسجماً مع التطور الحكائي العام "⁽¹⁶⁾.

ويمكن القول إن علاقة المكان بالشخصيات تساعد على تفهم أعمال الشخصيات ، بل إن هناك من ذهب إلى أن المكان هو ذاته شخصية من شخصيات العمل الفني ، كما يقول ياسين النصير في كتابه: (الرواية والمكان): "المكان في العمل الفني شخصية

¹⁴ قاسم، سيزا، . مرجع سابق، ص 118-119

¹⁵ بحراوي، حسن ، بنية الشكل الروائي مرجع سابق ص 30

¹⁶ بحراوي، حسن ، مرجع سابق ص 30

متماسكة، ومسافة مقاسة بالكلمات ، ورواية لأمر غائرة في الذات الاجتماعية؛ ولذا لا يصبح غطاء خارجياً أو شيئاً ثانوياً، بل هو الوعاء الذي تزداد قيمته كلما كان متداخلاً بالعمل الفني"⁽¹⁷⁾.

وعبارة الدكتور (ياسين النصير) مع ما فيها من مبالغة في تصوير أهمية المكان تصويراً مجازياً، لكنها في الحقيقة تبرز العلاقة بين المكان والشخصيات ، بل وتحول المكان ذاته إلى واحد من هذه الشخصيات ، وهذا ما لاحظته الباحثة في رواية (ساق الغراب) موضع الدراسة ، حيث أن المكان في الرواية يتحرك كواحد من الشخصيات الرئيسية، وقد كان ذلك مقصوداً من الكاتب، ولم يأت محض المصادفة .

ويمضي (النصير) مؤكداً على دور المكان في فهم البعد النفسي السايكولوجي للشخصيات ، وهذا واحد من أهم أبعاد العلاقة بين الاثنين ، حيث يقول: "ومن خلال الأماكن نستطيع قراءة سايكولوجية ساكنيه، وطريقة حياتهم وكيفية تعاملهم مع الطبيعة، أي المكان من خلال منظور التاريخ"⁽¹⁸⁾، وهذا البعد السايكولوجي والنفسي واضح جداً في علاقة المكان بالشخصيات كما ظهرت في رواية (ساق الغراب) ، فعندما نرصد أكثر الشخصيات سنجد أن الطبيعة الجبيلة قد أثرت على نفسية كل شخصية منهم ، ولهذا سنتطرق من خلال الرواية إلى التركيز على الشخصيات الأكثر حضوراً ، ونرصد بشكل تطبيقي تأثير المكان على هذه الشخصيات.

**** تأثير المكان على كل الشخصيات :**

من خلال قراءة أحداث الرواية وما يتخللها من الحوار والسرد والوصف، ندرك أن المكان تأثير قوي على الشخصيات جميعها التي وردت في الرواية، وهذا ما اتضح في بعض المواضع، ومنها ما قاله الراوي " أضحت قرى وادي الحسيني جرداء من أقدام الأطفال، الذين اصطفوا سيراً في قافلة النازحين، وخالية من جرار الفتيات على الأبار..، فخوت القرى تماماً من تباشير حياة القوم "⁽¹⁹⁾، حيث يظهر لنا تأثير المكان الذي تحول عنه النازحون، الذين خرجوا من الوادي، وتركوا كل ما فيه، وأثر هذا تأثيراً مباشراً على الناس، وهنا يرصد الكاتب حالتين متناقضتين تبرزان هذا التأثير المكاني: **الحالة الأولى** للقرى قبل عملية النزوح ، حيث كانت القرى هي حياة الناس ،

^{١٧} النصير، ياسين، الرواية والمكان، مرجع سابق ص 17

^{١٨} النصير، مرجع سابق ، ص17.

^{١٩} امقاسم ،يحيى، رواية ساق الغراب ، ط1، (بيروت ، دار الأدب ، 2008) ،ص21

والحالة الثانية : عندما خلت القرى منهم ، فأصبحت جرداء ليس فيها شيء من مظاهر الحياة السابقة ، فتجردت من أقدام أطفال صغار يسرون أو يلعبون في الشوارع، ومن فتيات كن يحملن الجرار الممتلئة من الآبار، لقد كان المكان ممثلاً للحياة ، وقد خلت القرى من هذه الحياة.

ويمكن رصد أثر المكان على حياة ساكنيه في الرواية ، بأنهم حتى عندما يختارون أسماء الأماكن، فذلك بناء على ما حدث فيه، يقول الراوي: "عندما استقرّوا في "الحبابة" نازحين، كانوا قد اختاروا منها مكاناً يُسمّونه "القايم"؛ لإطلاته الشاهقة على الأودية من الجانبين، وارتفاعه عن بقية الأرض الصخرية المحيطة؛ فأقيمت عليه بعض البيوت بسواعد النساء"⁽²⁰⁾، فالكاتب يظهر سبب تسمية المكان بالقايم ، ويقدم مبرراته واصفاً لأهم خصائصه ، التي دعت هؤلاء لتسميته بهذا الاسم ، فهو مرتفع ويطل على الأودية ، وقد أقيمت بيوته بسواعد النساء، مما يدل على أن أهل عصيرة ووادي الحسيني كانوا قد استوعبوا أهمية المكان في حياتهم ، وأدركوا مدى تأثيرهم عليهم، وهذا ما ستوضحه الباحثة من خلال عدد من الشخصيات، التي تم اختيارها لإظهار تأثير المكان وارتباطه بالشخصيات :

1- شخصية حمود الخير (أبو حشفة):

يمثل حمود الخير الشخصية السلبية وليست الإيجابية ، فهو كما سنرى بعد انتحاره، يمثل نهاية أسرة عيسى الخير ، وهو من الوهلة الأولى يحاول أن يعلن عن رجولته، وأنه يتحدى رجال القرية من خلال قصة ختانه، في ذلك المشهد الاستباقي والمستقطع التي بدأ بها الكاتب الرواية ، ومن هنا ندرك ارتباطه بشكل وثيق بالمكان، الذي يتمثل في قرية (عصيرة) ، ويحاول أن يجعل نفسه ورجولته مرتبطة باسم عصيرة ، حيث يقول : "يقتلونني.. لكن ما يلمس واحد منهم رجولتي، وأنا ابن عُصيرة"⁽²¹⁾، فعبارة (ابن عصيرة) تحمل دلالتين نفسييتين واضحتين : الأولى : تظهر كنوع من التحدي لمن يسمع ومن لا يسمع، فهي تحدي لأهل عصيرة في إظهار رجولته ، وتحدي لسلطة الإمارة الجديدة التي منعت ممارسة هذه العادة بتلك الطريقة، والدلالة الثانية : تظهر كافتخار بانتمائه لعصيرة، وتحمل في الوقت ذاته كلّ أمجاد عشائره في وادي

²⁰ رواية ساق الغراب، ص29

²¹ المصدر السابق، ص12.

"الحسيني" وتحديدًا في قريته "عصيرة"، القرية المركزية وداعية الوادي، وبذلك ندرك أن قرية عصيرة حملت الكثير من الدلالات النفسية، و انعكست على الشخصيات المؤثرة .

لكن دلالة انتماء حمود الخير وافتخاره بعصيرة ليست خصيصة إيجابية ، فمن خلال السرد ندرك أن (حمود الخير) يحاول أن يفتخر بنسبه وأسرته فحسب ، وليس بأفعاله وسلوكه، أو بما يقوم به ، إنه يحاول دائماً التذكير بأنه ابن هذه البلاد، دون أن يقدم ما يثبت استحقاقه لهذا الانتماء والافتخار .

وهو يؤكد هذه الحقيقة مراراً وتكراراً ، وهو انتمأؤه إلى عصيرة، وأنه ابن عصيرة "يا الهباش أنا ابن عُصيرة ..ولا تفر بعماك ..تري لك صايبه من هذا الزبان..."(22)، وهذا لا يعني - كما ذكرنا - أنه شخصية إيجابية فاعلة، بل ربما يكون هذا التكرار علامة ضعف وانهزامية، وهروباً من سلبية؛ لأنه في الحقيقة لم يقدم شيئاً يذكر لأهل قريته ولا لقرية عصيرة ، وقد كانت الجدة (صادقية) على خلاف معه، وقامت بطرده من المكان، وهذا يعني أن من حوله كان يدرك أن (حمود الخير) لم يكن يملك سوى النسب الشريف؛ لهذا يعود مرة أخرى ليجمع ما بين كلامه عن نسبه، وكلامه عن انتمائيه لعصيره ، في قوله: "أنا ابن عصيرة.. حمود ابن عيسى ابن مشاري جابر ابن خبر الخير.." (23)، إنها قائمة من النسب تتكرر من باب المباهاة والمفاخرة، و الاعتزاز بأنه من أبناء هذه المنطقة، ولم يقرنها أو يربطها بعمل حقيقي .

2- شخصية الشيخ (عيسى الخير):

الشيخ (عيسى) هو شيخ قبيلة عصيرة وكبيرهم، الذي يحمل الملامح الشكلية التي ورثها من أمه (صادقية) ، حيث كانت تتميز بصورة مختلفة حتى قيل عنها التركية ، فهو وبقيّة عائلته يحملون ذات الملامح ، ونفهم من سرد الرواية أن الشيخ (عيسى) لم يكن على وفاق مع الإمارة ، ومن خلال حواراته ونقاشاته مع أمه (صادقية)، يظهر انتمأؤه للمكان بوضوح ، فقد كان دائم الاعتزاز بنسبه من ناحية ، وبالمكان الذي يعيش فيه من ناحية أخرى، حتى كأنه يعطي

²² المصدر السابق نفسه ص123
(23) - رواية ساق الغراب، ص124

خصوصية وقداصة لهذا المكان "أنت في وادي الحسيني.. ومعتوق من كل دم يلحقك...تكلم"(24).

والذي يميزه أنه كان يعلم طبيعة المكان ويدرك أصالته وامتداد جذوره التاريخية ، ولهذا كان يعتز بطبيعة وعادات المنطقة "يا رجل أنت في بيت شيخ .. وهذا البكا ما يليق بي ولا بعصيرة .."(25) و نراه يمنح بعض الشخصيات المحورية حقها ، ويعرف ارتباطها بالمكان، حيث يقول لأمه (صادقية) مادحاً إياها " على حدك يا بنت عُصيرة ..والله يعرفون أنك شيخة وبنت وأمّ شيوخ"(26) ومن الدلالات التي منحها المكان له ، وأظهر تأثيره عليه، ما كان يمتلكه من مظاهر القوة النفسية والقيادية ، فكان دائماً ما يمدح عصيرة وأهلها ورجالها ، ويعلم مواضع القوة فيهم ، ويستطيع أن يحفزهم ، وقد مدح بشييش بقوله: "عكفة عصيرة ناقصة أربعين رجلاً!"(27) يعني أن بشييش يوازي أربعين رجلاً، لكن الشيخ (عيسى) رغم مظاهر القوة ، لم يستطيع وحده أن يدافع عن المكان .

شخصية (صادقية):

-3

كانت (صادقية) شخصية قوية، وكانت تدير أمور المكان مع ابنها الشريف (عيسى) ، وقد ارتبطت شخصيتها ارتباطاً وثيقاً بالمكان ، حتى أنها كانت ترفض التهجير أو النزوح أو ما يسمى (بالهجرة) التي خرج فيها كل أهل قرية عصيرة و احتموا بالوادي، عندما علموا أن الإمارة سوف ترسل جيشاً يحاربهم، و يخرجهم من هذه القرية ، فكانت تعترض على فكرة الخروج ، وتنادي بالبقاء في المكان ؛ لأنها تعلم علم اليقين أن كل أبناء وأهل قرية عصيرة ، لا يستطيعون العيش بعيداً عن أجوائهم الطبيعية التي نشأوا فيها .

ويمكن تحديد ثلاثة سمات تربط (صادقية) بالمكان ، الحب والدفاع ورفض الخروج ، فدائماً ما كان يلزمها حبها لعصيرة، ودفاعها عنها دفاعاً مستميتاً ، ورفضها الخروج من هذا المكان؛ ولهذا رفعت نداءها لابنها عيسى، وقالت: " يا عيسى.. عُصيرة صاحبة عهد وميثاق .. فلا تذللّ بلادك بحرب ، مالها ذكر

((24)) - المصدر السابق، ص156

((25)) - السابق نفسه، ص157

((26)) - نفسه ، ص82

((27)) - نفسه، ص18

في أيّ كتاب عندي...⁽²⁸⁾ ، فالعبارة هنا تحمل دلالة تاريخية وسياسية ، من خلال التأكيد على أن عصيرة صاحبة عهد و ميثاق، تلتزم بهما مع بقية القرى والأماكن الأخرى ، وأنها أيضاً لا تدخل في حروب ،فـعصيرة ليس لها علاقة بالحروب.

وقد تكررت عبارات الفخر والاعتزاز بانتمائها للمكان، مما يجعل ذلك من أهم خصائصها النفسية، التي كانت أثراً للمكان، تقول : "أنا بنت عصيرة، شبيخة بنت شيوخ ، والله لو الناس شَمّوا آمعنقريز من سبخة البحر، يا قوم الإمارة ما يلمسون حمود..."⁽²⁹⁾، إنها تشعر دائماً أن لها قدراً ومنزلة لدى ابنها من ناحية ، ولدى أهل القرية من ناحية أخرى ، ولذلك تُذكر ابنها بأنه ابن عصيرة حتى تربطه بالمكان، ولهذا تكررت عبارة: "على حدّك يا ابن عُصيرة ..."⁽³⁰⁾ وحتى في حواراتها مع الآخرين، تُذكرهم بفضل عصيرة، وبفضل القبيلة، والانتماء للمجتمع ، فتقول مثلاً لأبي هاجر: "دخلت هذا البيت وأنت بلا قيمة، ولا قبيلة تنهر عنك أهل عُصيرة، اللّي عززوك بينهم وكرّموك أنت وبنّتك"⁽³¹⁾ فهي تعيره بعدم أصله، وبأنه لم يكن له قيمة بدون أهل عصيرة.

ودائماً تُذكر الآخرين بشرع عصيرة ووادي الحسيني، وتطرد من ترى أنهم يخالفون هذا الشرع؛ ولهذا حاولت طرد المقرئ (محمد الصالح) الذي سموه محمد المقرع ، وطرّدته شر طردة من عصيرة ووادي الحسيني، وقالت "وذا الحين يا فاجر أنت مقروع بالدين وبشرع عصيرة ووادي الحسيني، واخرج من هذي القرية ولا تنور الدينا بكرة ولك ذكر هاهنا..."⁽³²⁾، فهي من خلال كل ذلك تمثل الذاكرة المكانية ، التي تنبه الغافل إذا نسي أو تخاذل، وأحياناً ما تكون عبارات هذه الذاكرة قاسية ، كما فعلت مع المقرئ ، وأحياناً أخرى تكون رفيقة ورقيقة كما كانت تصنع مع ابنها الشيخ عيسى.

ويظهر من خلال السرد الروائي أن هناك جانباً إيجابياً آخر في شخصية (صادقية) ، وقد لعب المكان دوراً واضحاً في بروز هذا الجانب ، وهو

(28) -رواية ساق الغراب، ص19.

(29) -المصدر السابق، ص82

(30) -السابق نفسه، ص92

(31) -نفسه ، ص 201

(32) -نفسه ص206

التضحية ، فقد ضحت بنفسها من أجل عصيرة ، ومن أجل قبيلتها، ومن أجل زوجها مشاري وابنها الشيخ عيسى، وقد صبغت هذه التضحية بصبغة أسطورية خرافية إلى حد كبير ، فقد فاوضت الموالين، وهم الجن الذين كانوا يسكنون جبل امدقم، فاوضتهم على أن يأخذوا عينيها وتفقد نظرها، مقابل أن يبقى لأهل عصيرة ووادي الحسيني تاريخها وذكرياتها، فهي تقول: "من كان يستحق عيوني غير وادي الحسيني؟...رضيت بالعمى ويبقى لأهل عصيرة كل هذا التاريخ"(33).

ومن خلال ما سبق يمكن تأمل شخصية (صادقية)، وعلاقتها بالمكان على محورين: الأول: **محور نفسي مزاجي** ، وهو ما يظهر من أول الرواية، عندما نجد شخصية قوية وقيادية ، وذات تأثير على الآخرين ، ابنها وحفيدها وكل أهل عصيرة ، واحترامهم وتقديرهم لها، مع فشلها في منعهم من الخروج والنزوح خارج القرية.

والمحور الثاني: محور شكلي ، يتعلق بوصف الشخصية من الخارج، وقد جعل ذلك لها هيبته في القرية، وحفر في ذاكرة أهل القرية صورة مؤثرة، فقد كانت تمتلك ملامح شكلية وخلقية تتسم بالجمال والتميز، يقول الكاتب: "وكثيراً ما كانت هياتها محل اهتمام الغير وتعجبهم، حتى غدت تعرف بالتركية؛ لشبهها بالأتراك أو الحمر الذين حاربوا"(34) ، وقد حملت أوصاف العائلة كلها تلك السمات الشكلية ، فكانت مشتركة بين الأم صادقية والابن عيسى الخير والحفيد حمود الخير " وهذا ما جعل الجميع يقر بمكانتهم ، وعلو عرقهم على مر القرون، التي تخالفوا على عيش أعوامها الطويلة في وادي الحسيني "(35) ، وهنا يربط الكاتب بين تلك السمات الشكلية الخارجية وبين المكان، من خلال التأكيد على امتداد هذا العرق أو النسل أو النسب ، الذي مكن لهذه السلالة من الاستمرار في قيادة القبيلة طوال هذه القرون .

وعلى الرغم من هذا الامتداد الزمني والتواجد المكاني لهذه السلالة ، ندرك من خلال السرد الروائي ومن خلال نهاية الشخصيات الثلاثة، أن ذلك الامتداد

(33) - نفسه ، ص234

(34) - رواية ساق الغراب، ص 238

(35) - المصدر السابق، ص 238

والتواجد قد زال: (حمود الخير) يمثل النسل الذي انقطع ، والشيخ (عيسى الخير) يمثل عهداً قد انتهى، والأم (صادقية) تمثل العادات والتقاليد والموروث الذي اندثر ، فالشخصيات الثلاثة وموتها جميعاً تبعاً ، بداية من عيسى الخير ثم موت حمود ثم موت صادقية، كل هذا يمثل انتهاء عهد قديم وبداية عهد جديد ، ويضاف إلى هذه النهايات وفاة الأب الشيخ مشاري زوج صادقية وأبو عيسى في فترة سابقة ، مما يعني انقطاع وجود هذه العائلة ونهايتها في هذا المكان .

4- شخصية (بشبيش):

يمثل بشبيش رمز القوة، والحامي والمدافع عن عصيرة ، وهو أيضاً يرتبط ارتباطاً قوياً بعصيرة ووادي الحسيني، حتى أنه كما وصفه الراوي: " يبيت بشبيش أسفل سرير الأم، محتضناً بندقيته معتقاً ، هذا اسمها تيمناً بواديهما، الذي يعتق كل من يلوذ به " (36)، فبشبيش يحب الأماكن ويتبارك بها، حتى أنه يسمى بندقيته التي يحتمي بها باسم أحد الأودية ، وأيضاً يصف الكاتب بشبيش في موضع آخر أنه عين راصده ترقب المكان من أجل حمايته " قد خلفوا من بعدهم عيناً استطلاعية وراصدة للمكان " (37)، فهو يتميز بأنه بعين استطلاعية ترصد ما يحدث بالمكان؛ ولهذا اختاروه لكي يبقى .

لكن هناك جانباً خفياً آخر مرتبطاً بشخصية بشبيش ، فعلى الرغم من أنه يحب المكان ويستعد دائماً لحمايته والدفاع عنه ، إلا أنه ظهر من خلال السرد أن بشبيش كان لديه الرغبة في مغادرة المكان، وهذا ما أعلنه للأم صادقية، عندما قال: " أنا من الليلة ما عاد لي مكان في هذا الوادي " (38)، وسنعرف لاحقاً أن هذه الرغبة في مغادرة المكان كانت قدراً محتوماً ، وأن بشبيش لم يكن يملك إلا أن يغادر ، خاصة عندما يتضح أن حبله السري قد دفن هناك خارج الوادي.

5- شخصية شريفة:

وهي شخصية إيجابية، وتعد رمزاً للشرف والنقاء؛ ولهذا ربما اختار لها الكاتب اسم (شريفة) ، والتي تعد في الوقت ذاته امتداداً لشخصية (صادقية) ، فشريفة ابنة بشبيش ، أو الابنة المتبناة والمنسوبة إليه ، ولها ارتباط كبير بالمكان ، حيث

(36) - السابق نفسه، ص 96

(37) - نفسه ص 28 .

38 - رواية ساق الغراب ، ص 104.

كان جزء من حبلى السري مدفوناً في عكوة الجبل اليماني، والجزء الآخر مدفون في بيت الشيخ، ولهذا فهي تمتد بجذورها داخل المكان، إضافة إلى أن (صادقية) اختارتها لتكون الوارثة عنها، بدليل الثوب الذي أرسلته لها في نهاية الرواية، وكأنه إشارة أو رمز إلى امتداد العادات والتقاليد والتاريخ والأعراف من صادقية إلى شريفة.

ولأنها شديدة الارتباط بالمكان فقد كانت تحس بأنها ابنة الأرض، ولها جذور ممتدة في هذا المكان، ولهذا هتفت شريفة: "نعم هذه هي رائحتهم أحملها بين فخذيني من شهور.. إني بنت أرضي ورجالي.. إنها الرائحة الوحيدة التي تميّزهم عن بقية رجال كامل المخلاف"⁽³⁹⁾، فشريفة تعلم كل ما يميز عصيرة عن بقية قرى المخلاف، وكل ما يعبر عن أهلها وأصالتهم.

ومن خلال ما سبق يمكن القول بأن الشخصيات التي تتحرك في هذه الرواية، حملت صورة المكان وارتبطت به بقوة، وأثر عليها هذا الارتباط تأثيراً واضحاً، ولهذا فإن أكثر الشخصيات ذات انتماء وتعلق بالمكان، كما رأينا عند حمود وعيسى الخير وصادقية وشريفة وبشيبش، وأيضاً كان للمكان دور في الحفاظ على الأفكار والعادات والتقاليد لهذه المنطقة، كما رأينا تحديداً عند صادقية وشريفة.

المطلب الثاني: علاقة المكان بالأحداث

الحدث هو العمود الفقري للسرد والعمل الروائي، فبدون الحدث ليس هناك قصة أو حكاية، إن الحدث هو الوقائع والأفعال التي تجري وتدور في فضاء الرواية، ومن خلال الحدث تظهر الشخصيات وتتطور، ويظهر أثر المكان والزمان وغير ذلك من مقومات الرواية.

الحدث لغة: "حدث: الحديث نقيض القديم، حَدَثَ الشيء يحدث حدثاً وحادثة وأحدثه، فهو مُحدث وحديث، وكذلك استحدثه"⁽⁴⁰⁾، أيضاً الحدوث "عبارة عن وجود شيء بعد عدمه"⁽⁴¹⁾.

³⁹ - المصدر السابق، ص 292

3- ابن منظور، لسان العرب، مادة: "حدث"، ج 131/2

الحدث اصطلاحاً: الحدث بالمفهوم السردي هو " مجموعة من الوقائع الجزئية، مرتبطة ومنظمة على نحو خاص"⁽⁴²⁾، ويعرف بأنه "كل ما يؤدي إلى تغيير أمر، أو خلق حركة، أو إنتاج شيء، ويمكن تحديد الحدث في الرواية، بأنه لعبة قوى متواجهة أو متحافّة، تنطوي على أجزاء تشكل دورها حالات محالفة أو مواجهة بين الشخصيات"⁽⁴³⁾.

ولهذا يعدّ الحدث مكوناً رئيساً ، وواحداً من أهم عناصر الرواية مثل: الزمان والمكان والشخصيات و اللغة، ويعدّ أيضاً أبرز هذه العناصر، ويمكن القول إن الحدث هو عبارة عن مجموعة من الأفعال و الوقائع مرتبة ترتيباً سببياً، وهذا ما نراه في رواية (ساق الغراب) إلى حد ما ، فهي رواية تاريخية ؛ لأنها تتناول أحداثاً و وقائع، مرت في تاريخ المملكة العربية السعودية، في منطقة وادي الحسيني في جازان جنوب المملكة، فهي تضم عدداً من هذه الوقائع والأحداث التي قام على أساسها بناء الرواية.

لكن الكاتب (يحيى امقاسم) استطاع أن يمزج الوقائع الحقيقية و التاريخية مع الوقائع الخيالية و الأسطورية ، حيث تمتزج فيها الواقعية بالخيال، وهو ما يسمى في النقد الأدبي الحديث بـ(الواقعية السحرية) والتي تعني : " التوازن الدقيق والمحسوب بين عنصرين: هما الواقعي الفانتازي أو الخيالي ، والواقعي هو ما يجري من أحداث على أرض الواقع"⁽⁴⁴⁾ ، ومعنى ذلك أن الواقعية تفرض على الكاتب أن يقترب من الواقع ، الذي يؤسس بناء على الطبيعة والمكان والبيئة التي تدور فيها الأحداث ، فلا واقعية بدون رسم معالم المكان وتشكيلاته، ومن أهم هذه المعالم المكانية في الرواية : قرية عصيرة ، قرية صبياء ، وادي الحسيني ، والجبال المختلفة والمتنوعة كـ (جبل عكوة ، وساق الغراب، وامدقم، ..) وغيرها من الأماكن التي توجد في الحقيقة ،

4- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، كتاب التعريفات، تحقيق: ابراهيم الابياري، (ط2 القاهرة ، دار

الريان للتراث 1403 هـ) ص113

42 - ينظر :رحيم ، أحمد ، المصطلح السردى في النقد الأدبى العربى الحديث، دار صفاء للنشر الأردن ط

1 ، 2014 م ، ص246.

43 - عدواني أحمد ، بداية النص الروائى: مقارنة لآليات تشكيل الدلالة، المركز الثقافى العربى ط 1 ،

2011 م، ص 256.

44 - أبو أحمد، حامد ، كتاب الواقعية السحرية فى الرواية العربية، ط1، (المجلس الأعلى للثقافة القاهرة د

ت) ص62-63

وهذا يجعل المتلقي يشعر بالواقعية ، أما الخيالية في الأحداث فتظهر من خلال شخصيات ووقائع حدثت، ويمكن اعتبارها من الحكايات الأسطورية الشعبية، مثل اتفاق الجن (الموالين) مع الأم (صادقية) ، ومثل القصة الشعبية الخرافية حول جبلي عكوة ، وبصفة عامة فإن الأحداث في الرواية، سواء أكانت واقعية أم خيالية، مشدودة ومرتبطة بالأمكان ، فما من حدث في الرواية إلا وله اتصال بمكان.

ولذلك سوف يقوم البحث برصد أهم الأحداث وأكثرها تأثيراً، ومدى ارتباط هذه الأحداث بالمكان .

أحداث الرواية:

تسير الأحداث في مسارين: مسار آني حاصر ، ومسار ماضي مسترجع، فالأحداث الكثيرة منها مسترجع بطريقة الفلاش باك، ويمكن تقسيم الأحداث حسب قوتها وأهميتها في الرواية، إلى ثلاثة أقسام رئيسة :

(1) **يوم امدُقم الأول:** عندما قتل الشريف مشاري، وجاء الجن لدفنه في جبل (امدُقم) ، وتولي (صادقية) زعامة وادي الحسيني، وهذا قبل أربعين عاماً من يوم الهَرْبَة، فهذا حدث رئيسي ومسترجع، أي أنه من الأحداث الماضية التي قام الراوي باسترجاعها وربطها بالأحداث الحاضرة .

(2) **ويوم الهَرْبَة :** ويمثل الشرخ في حياة أهل عصيرة ، وهو اليوم الذي بدأت تتصاعد من خلاله الأحداث ، ويشكل المحور الحاضر والآن، الذي تفرعت من خلاله أحداث القصة .

(3) **أما اليوم أو الحدث الثالث فهو يوم شارق:** عندما تموت (صادقية) بعد فجعتها في موت حبيبها وعشيقها (ابن الهيجة) ، وانتقامها من أهل القرية و كراهيتها لهم، ثم توصيه لشريفة لتقوم باستمرارية دور الأم .

وقد استخدم الكاتب تقنية تقطيع الحدث وتوزيعه، ليس عن طريق الترتيب الزمني المنطقي التتابعي، فهو في أحيان كثيرة يفاجئنا بحدث آني حاصر، لكنه مستقطع من سياق الأحداث الرئيسية داخل الرواية ، كما رأينا مع حدث ختان (حمود الخير) لنفسه ، فقد بدأ به في أول الرواية، ووضع له عنوان: (فحولة إلى حين)، لكن ترتيب هذا الحدث ينبغي أن يكون موجوداً في داخل الرواية ،

فالكاتب قد استقطع هذا الحدث من سياق الأحداث ، وجعله هو المدخل والممهد لما سيأتي من أحداث.

ويمكننا هنا ذكر بعض الأحداث التي تركت أثراً في الرواية، ومنها:

- 1- ختان (حمود الخير) لنفسه.
- 2- انتحار (حمود الخير) في النهاية، على قمة جبل عكوة اليماني.
- 3- موت الشريف (مشاري)، ورغبة الجن في دفن جثمانه في جبل (امدقم) ، ورفض (صادقية) ورغبتها في دفنه بعصيرة، وقبول الجن لذلك ، بشرط أن يأخذوا بصرها وتصبح عمياء.
- 4- رحيل (بشيش) ابن أخت (صادقية)، و السبب في رحيله كما سنعرفه من سياق الأحداث أن (صادقية) قد دفنت عند ولادته حبله السري في الوادي خارج القرية.
- 5- رغبة (صادقية) في أن تعيش حياتها مع (ابن الهيجة) ، وعلم ابنها الشيخ (عيسى) بذلك ، ثم موته، وهنا يأخذ الجن جسده ويدفونه في جبل (امدقم) ، وبذلك تستعيد (صادقية) بصرها، وكانت قد بلغت الشبعين عاماً.
- 6- ثم تحدث المفارقة ، في أن (صادقية) عندما استعادت بصرها، كان لديها الرغبة الملحة في الزواج من (ابن الهيجة)، لكن هذه الرغبة لم تتحقق ، فقد قام أهل عصيرة بقتله، وبذلك يموت أملها في حبها الأخير.
- 7- وبعد ذلك تموت (صادقية) ، وتنتقل مهام الأم إلى (شريفة)، بعد أن تعرف من (صادقية) أنها ليست ابنة (بشيش)، ولهذا تذهب إلى جبل عكوة اليماني حيث دفن حبلها السري ، لتنفيذ وصية (صادقية).
- 8- يحاول (المقري) والذي يمثل السلطة الدينية القادمة من الإمارة، أن يفرض سلطانه على أهل عصيرة ، وذلك قد أظهر الصراع بين الشيخ المقري و صادقية تحديداً ؛لأنها رفضت سلطة الإمارة .
- 9- يظهر من خلال تصاعد الأحداث أن (صادقية) كان لديها القدرة على التنبؤ بالأحداث المستقبلية ، التي كانت تقولها لرجال القرية، والتي وقعت وتحققت فعلاً؛ ولذا كانت تحظى - من أهل القرية - بقدر كبير من التقدير والاحترام الممزوج بالرهبة والخوف ؛ لأنهم يحترمون رأيها بشكل كبير ، ولا يقطعون أمراً دون الرجوع إليها ، ويعود ذلك إلى ثلاث أسباب : الأول: نسبها وأصلها ، حيث أنها تنتمي إلى أسرة الشريف والذي ينسب إلى آل البيت ، والسبب الثاني: ما تميزت به في شكلها وهياتها ،

والذي أكسبها الهيبة والوقار، والسبب الثالث: أنها كانت موالية لبعض للجن ، الذين كانوا يساعدونها ، معتبرين أنها أصبحت زعيمة وقائدة لسكان المكان.

ومن خلال هذه الأحداث المتوالية في الرواية ، يمكن أن نبحت عن وجود المكان وعلاقته بالحدث ، لأننا كما قلنا سابقا لا حدث بلا مكان ، فهناك تلازم ضروري وحتمي بينهما ، خاصة وأن المكان يكسب هذه الأحداث وجودها وظهورها وتفاعلها ، وهذه الأحداث مع أماكنها كما يلي:

الحدث	المكان	الصفحة
ختان حمود الخير	الأحراش	11
انتحار حمود الخير	على جبل عكوة اليماني	291
دفن الجزء الأول من الحبل السري لـ شريفة في البيت	في البيت	49
دفن (الهباش، بن شامي ، الساحلي)	في تل (شارق)	153
دفن الجزء الثاني من الحبل السري لـ شريفة	على جبل عكوة	161
تنفيذ شريفة لوصية صادقية	الصعود على جبل عكوة	279
رغبة الموالين (الجن) في دفن الشريف مشاري	جبل امدقم	234
دفن الشيخ عيسى الخير	فوق تل "شارق"	274
دفن ابن الهبة	أعلى تل "شارق"	275

دلالات المكان وارتباطه بالحدث :

ومن خلال الجدول السابق يتبين لنا: أنه ما من حدث - سواء أكان حدثاً رئيساً أم حدثاً فرعياً صغيراً - إلا ونجد له ارتباطاً وثيقاً بالمكان ، وهذا دليل على أن المكان في الرواية كان عاملاً من عوامل تفاعل الحدث وتناميه وتصارعه، وأنه ليس هناك وجود حقيقي للحدث ، بدون مكان يتجسد ويتصور ويظهر من خلاله ، وكأن المكان هو خشبة المسرح التي تدور عليه الأحداث وتظهر الشخصيات وتتجاوز ، فقرية (عصيرة) كانت مكاناً محورياً ومركزاً رئيساً دارت فيه وعليه الأحداث، وكذلك الجبال المحيطة بهذه القرى ، ومنها جبل (ساق الغراب) الذي سيمت الرواية باسمه ، أو جبل (امدقم) أو جبل (عكوة) اليماني أو (عكوة) الشامي أو غيرها من الأماكن الأخرى، التي أسهمت في تصور مشاهد الرواية ، وانتقلنا عبر المكان من مشهد إلى مشهد.

إضافة إلى ان ما لاحظته الباحثة من أن الكاتب (يحيى امقاسم) كان يختار المكان المناسب إلى حد كبير الذي يربطه مع الحدث المناسب ، على سبيل المثال: عندما اختار (حمود الخير) أن يقوم بختان نفسه، لم يجد إلا مكاناً معيناً داخل الأحراش ، لأنه منعزل وبعيد عن أعين المتربصين به، إذن فهناك دلالة قوية لاختيار المكان وليس مسألة عشوائية .

ومن الدلالات التي يمكن استخراجها واستنتاجها، من دفن الحبل السري في أماكن معينة ، أن الشخص الذي يُدفن حبله السري في مكان، سوف يعود إليه أو يرتبط به ، ولهذا كانت عادة أهل (عصيرة) دفن الحبل السري للإناث في داخل البيت؛ حتى تكون الأنثى ملازمة للبيت ، في حين يدفن الحبل السري للذكور خارج البيت؛ حتى يكون ذلك منطلقاً لخروجهم ، وبحثهم عن الرزق خارج البيت ، لكن في حالة (شريفة) اختلف الأمر قليلاً ، فقد جمعت بين الطريقتين، حيث قامت الأم (صادقية) بدفن جزء من الحبل السري لشريفة داخل البيت، والجزء الثاني في جبل عكوة ، وهذا ما يفسر ميل شريفة إلى هذا الجبل "وعلمت الأم أن شريفة بدأت تميل إلى جبل عكوة" (45)، وهذا يفسر أيضاً لماذا هاجر (بشيش) وترك القرية ؛ لأن حبله السري دفن خارج القرية .

((45)) - رواية ساق الغراب ، ص161

واستمراراً في رصد علاقة المكان بالحدث، فإنه من الممكن تأمل بعض الأحداث الفرعية، والنظر في مدى علاقتها بالمكان الذي دارت فيه ، ومثال ذلك أن حدث تجمع الناس يحتاج إلى مكان واسع ، وليس هناك أوسع من الميدان "كان ناي الجيش يُلهب الأرواح في ميدان (قُنيدة)" ⁽⁴⁶⁾، فتجميع أهل قرية (عصيرة) في ميدان قنيدة، كان خطوة أولى للنزوح ، وهنا تم اختيار الميدان بما يعني الاتساع الذي يحتوي جميع أهل القرية، وبالنظر إلى حدث آخر نجد أن ثمة ارتباط بمحاولة توجيه الناس في يوم (الهربة)، للذهاب إلى تخوم جبال (ساق الغراب)، وهذا ما ظهر في توصية الشيخ عيسى لابنه حمود " تسمع الشيخ يُوصي ابنه حمود، أن يُثبت رجولته في الحفاظ على جدته، وإيصالها مع الأطفال وعجزة العشائر إلى تخوم جبال ساق الغراب، من الناحية الشرقية لواديهـم" ⁽⁴⁷⁾، فالكاتب هنا اعتبر أن الجبال رمز الحماية، ورمز الثبات والقوة والتحصن، ورمز مقاومة التغيير الذي يخاف منه الجميع ويرفضه، وربما هذا ما جعل أسماء الجبال تتردد كثيراً في الرواية.

وهناك عبارات ذكرت في الرواية تمثل وتعبّر عن ارتباط المكان بالحدث ، منها: عندما بدأ الكاتب حديثه عن يوم (الهربة) بدأ بعبارة " خرجوا وكأن لا بلاد من بعدهم " ⁽⁴⁸⁾ ، هذه العبارة تربط الحدث وهو الخروج والهروب من خارج المكان، بنبوءة أن كل شيء سيتغير حاله في هذه القرية، وكأنه لم يكن لهم بلد في يوم من الأيام ، فالعبارة تشير إلى نوع من الانسلاخ والتحول الذي سيطرأ على القرية فيما بعد .

ومن الدلالات الأخرى في ارتباط المكان بالحدث، ما أشار إليه الكاتب من اسم المكان، الذي استقروا فيه في فترة النزوح ، "عندما استقروا في (الجِبَاطة) نازحين، كانوا قد اختاروا منها مكاناً يُسمّونه (القَائم) لإطلالته الشاهقة على الأودية من الجانبين، وارتفاعه عن بقية الأرض الصخرية المحيطة" ⁽⁴⁹⁾، فقد سمى النازحون المكان بـ(القائم)؛ لأنه كان مكان الإقامة التي استقروا فيها لفترة .

(46) – المصدر السابق ، ص 17

(47) – السابق نفسه، ص 20

(48) – رواية ساق الغراب ، ص 17

(49) – المصدر السابق ، ص 29

ومن الدلالات على ذلك الارتباط الوثيق بين المكان والحدث : نبوءة الأم (صادقية) في انتهاء الزمن القديم وبداية عهد جديد ، حيث سيكون لأبناء هذه المنطقة ارتباط بالشمال، وسوف تتغير أحوالهم، وهذا ما حدث بالفعل، وفي خلال هذه الأحداث ظهرت أسماء الأماكن، فقد حددت الأم أسماء الأماكن والأراضي والمدن "ذكرت أنّ هناك دولة قائمة تجوب أراضي كثيرة، ويصل شأن قوتها حتى مدينة (زبيد) اليمنية، وهذه القوة ستفني مقدراتهم من سلطة لها شرعيتها، والأدهى أنّ هذا الحكم سيستقطب أبناءهم للشمال!"⁽⁵⁰⁾.

على أن ثمة أمراً آخر لاحظته الباحثة من خلال بعض الأحداث ، وهي أن أكثر الذين ماتوا ودفنوا، كانوا يرغبون قبل وفاتهم، في أن يدفنوا أو أن يدفن من يعرفون ويحبون في قمم الجبال، حتى (حمود الخير) عندما أراد أن ينتحر وتنتهي حياته، ذهب إلى قمة جبل عكوة وقام بالانتحار.

فهل كان هنالك عقيدة يؤمن بها ويصدقها هؤلاء الناس؟ ، وهي أن الجبال أو قمم الجبال تحديداً، تمثل الشموخ والعزة في الحياة والممات، فهم يلوذون بالجبال في حياتهم، و يهربون إليها وهم أحياء، وعندما يموتون يرغبون أن يدفنوا داخل هذه الجبال ، ويستمر اهتمام أهل القرية وشيوخ الرواية في الاعتقاد بتميز تلك الجبال ، وفي أنها محور حياتهم ، حتى أنهم نسجوا حولها الأساطير والحكايات الشعبية، بدليل أنهم تخيلوا جبلين (عكوة الشامية و عكوة اليمانية) صغيرين ، كانا في قافلة من قوافل الحج ذاهبين إلى مكة ، وفي طريق عودة القافلة ، ظل الجبلان ورفضا الذهاب، واستقرا في هذا المكان !

ومن خلال ما سبق يتضح لنا أن المكان في الرواية كان محركاً للأحداث ، بل جعلها في بعض المواضع تنمو وتتطور ، مما يعني أن وجود المكان كان مؤثراً وفاعلاً ، ولم يكن مجرد أسماء أو وصف لمواضع ، وإنما المكان كان بمثابة مسرح، تفاعلت فيه الأحداث والشخصيات، مما جعل أكثر الأحداث في الرواية مرتبطة بالمكان ، حتى أن الكاتب (يحيى امقاسم)، قد جعل عنوان روايته اسم واحد من هذه الجبال المحيطة بهم وهي جبال (ساق الغراب).

(50) – السابق نفسه ، ص32

المطلب الثالث: علاقة المكان بالحوار

الحوار وسيلة من وسائل السرد الروائي، وهو يسهم في رسم الشخصيات، ويساعد على تنامي الأحداث، وفي الوقت نفسه يسهم في تصور المكان، ويوضح أثره على الشخصيات، فالحوار يظهر كواحد من هذه الشخصيات، ويكشف أبعادها وحالتها، وسوف نتناول ذلك من خلال العناصر التالية:

(1) الحوار لغة واصطلاحاً:

الحوار لغة: هو " تبادل الحديث بين الشخصيات في قصة أو مسرحية " (51).

أما الحوار اصطلاحاً: فقد عرفه الكثير من نقاد الأدب والرواية بأنه "حديث يدور بين اثنين على الأقل، ويتناول شتى الموضوعات، أو هو كلام يقع بين الأديب ونفسه، أو من ينزله مقام نفسه، يفرض منه الإبانة عن المواقف، والكشف عن خبايا النفس" (52).

وعندما نتحدث عن علاقة المكان بعناصر البناء السردية، سنجد أنها علاقة وثيقة وقوية "وقد ظلّ المكان يؤدي دوراً رئيساً في تشكيل الإطار العام للشخصيات والحوار والحبكة، فالمكان يمارس سلطة في وعي الشخصيات التي تقدم الحوار" (53)، أما علاقة الحوار بالمكان فهي أساسية، إذ أنه يمثل الكاشف لأبعاد المكان، حيث "يضطلع الحوار بوظيفة الكشف عن الأماكن المرئية وغير المرئية؛ فبواسطته يظهر المكان ويظهر تأثيره في الشخصيات" (54).

1 - وهبة، مجدي، والمهندس، كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب. ط2، (بيروت: مكتبة لبنان، 1984)، ص154

52- نجم عبدالله كاظم، مشكلة الحوار في الرواية العربية، كلية الآداب، جامعة بغداد، الأردن، (د،ت)، ص90

53 - منصور نعمان نجم، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر والتوزيع، أريد، الأردن، 1999، ص31

4 - محمد، قيس عمر، البنية الحوارية في النص المسرحي ناهض الرمضاني أنموذجاً، ط1، (عمان، دار غيداء للنشر، 1433=2012)، ص96

(2) لغة الحوار :

يعد الحوار هو الوسيلة الأهم في العمل الأدبي، والركيزة الأشد أهمية في بناء الشخصيات الروائية، مما يجعلها أكثر نقلاً للواقع وأكثر نقلاً لصورة الأفكار التي أرادها الكاتب ، ولا بد من التأكيد على أنه ما من حوار إلا وله لغة، تتواصل بها الشخصيات الموجودة في الرواية ، وهذه اللغة ليست واحدة ، فالرواية فن أدبي لا يعترف بأحادية اللغة ، خاصة في الحوار، وتظهر ثنائية اللغة المستخدمة في الرواية ، أولاً: في لغة الحوار والتي تخص الشخصيات وتمثلها ، وثانياً : لغة السرد والوصف ، والتي تمثل لغة وأسلوب وطريقة الكاتب ، ولما كان للشخصيات طريقتهم الخاصة والمتنوعة ، جاءت لغة الحوار مواكبة لهذا التنوع، ومن هنا ناقش الباحثون في بنية الرواية قضية إدراج اللهجات المحلية في الحوار الروائي، حيث اعتبرها البعض ضرورة وحمية لابد من الإقرار بها "باتت عملية إدراج اللهجات المحلية في الكتابة السردية وفي عنصر الحوار منها بخاصة، حتمية فنية لا فكاك عنها في نظر بعض الروائيين العرب، لمن أراد أن يكون أقرب إلى تصوير الأحداث، والكشف عن الشخصيات، والتعبير عن العواطف والأفكار، والواقع اليومي من الفصحى"⁽⁵⁵⁾.

(3) لغة الحوار بين الفصحى والعامية:

انقسم النقاد والكتاب والروائيون إلى فرق، منهم من ينادي بجعل الحوار باللغة العربية الفصحى ، وهناك من ينادي بجعل الحوار بالعامية المطلقة ، وهناك من ينادي بمزج العامية بالفصحى، وهذا الاتجاه الثالث هو الأقرب إلى طبيعة الرواية.

وسوف تتناول الباحثة مواقف هذه الفرق الثلاثة، من خلال آراء بعض النقاد والكتاب ، فيما يلي :

الأولى : ترفض العامية جملة وتفصيلاً، وتنقدها نقداً لاذعاً ، وترى في إشاعتها خيانة للأمة العربية وتراثها، ومن هذه الفرقة الدكتور (طه حسين)، الذي يعلن عن موقفه قائلاً: " إنني أعارض وسأظل أعارض من دون هوادة،

^{٥٥} - مرتاض، عبد الملك، مرجع سابق، ص 114

أولئك الذين يعتبرون العامية أداة ملائمة للتفاهم المشترك ، وكسبيل لتحقيق مختلف أهداف حياتنا الثقافية ، فالعامية تفتقر إلى الصفات التي تجعل منها أهلاً لأن تسمى لغة ، وإنني اعتبرها لهجة تم إفسادها من جوانب عدة" (56).

والثانية : لا تؤيد الفرقة الأولى على الإطلاق ، وترى في توظيف العامية تجديداً للنص القصصي ، وتحقيقاً للاتجاه الواقعي للشخصيات، ومن أشهر المتحمسين لهذا الرأي (أنيس فريجة)، إذ يقول: " إن العرب يشعرون أن لغتهم هي اللغة المحكية ، وأن الفصحى لغة رسمية ، فهم لا يشعرون بأنها جزء من حياتهم ، بل إنهم إذا تكلموا أو صلّوا أو غنّوا أو غضبوا أو شتموا، فإن اللغة التي يعبرون بها عن هذا كله إنما هي اللغة العامية" (57).

والثالثة : توسطت بين الفريقين؛ فجوّزت للقاصّ توظيف العامية في الحوار دون السرد ، ومن المنادين لهذا الرأي محمد يوسف نجم ، حيث يقول: "والعامية لا تدخل في الأسلوب القصصي ، إلا في المواقف الحوارية ، فالكاتب الذي يلجأ إلى طريقة السرد المباشر ، أو الطرق الفنية الأخرى، لا يحتاج إلى أن يحدث قراءه بلغة عامية" (58).

وهنا يتبادر التساؤل حول ما الذي سيطر على لغة الحوار في رواية (ساق الغراب)؟ ، هل كانت بالفصحى الكاملة ؟ أم أنها كانت بالعامية المطلقة؟ ، والرأي الذي مالت إليه الباحثة ، أن الحوار يجمع أو يمزج بين العامية والفصحى، مع غلبة اللهجة المحلية الخاصة بأهل المنطقة، إذن يمكن القول أن الكاتب يستخدم في الحوار لغة تمتزج فيها الفصحى البسيطة والعامية المحلية ، وهذا ما ذهب إليه بعض الباحثين الذين درسوا هذه الرواية، ومنهم : الباحث محمد آل مبارك، الذي يرى " أن رواية (ساق الغراب) تنهض على مستويين لغويين رئيسيين، هما:

المستوى الأول: اللغة العربية الفصيحة ، وهي اللغة المستخدمة في السرد وحكاية الأحداث ووصفها، وهي لغة الكاتب.

⁵⁶ حسين ، عبد الرزاق ، فن النثر المتجدد ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1 ، 1998 ، ص72

⁵⁷ فريجة ، أنيس، نحو عربية ميسرة، ط1، (بيروت ، دار الثقافة ، دت)، ص122

⁵⁸ نجم ، محمد يوسف، فن القصة ، ط1، (بيروت ، دار بيروت للطباعة والنشر ، 1955) ، ص (115-

والمستوى الثاني: اللغة العامية التي تمثل لهجة منطقة (جازان)، الواقعة جنوب غرب المملكة العربية السعودية ، والمعروفة قديماً بالمخلاف السليماني ، هنالك اللغة الحميرية المشهورة بين اللهجات العربية القديمة التي تستخدم (أم) مكان (أل) التعريفية في الفصحى⁽⁵⁹⁾، وهذا ما جعل الباحثة تستنتج أن الكاتب اختار لنفسه اسمه باللهجة المحلية، وكتبه على غلاف الرواية اعتراز بها؛ لأنه كان يستخدم لقباً سابقاً ، وهو (يحيى سبعي)، لكنه فضل الاسم الذي ينطق باللهجة الحميرية القديمة، ولقب نفسه بـ (يحيى امقاسم).

ويمكن القول بأن لغة الحوار كانت في الكثير من المواضيع عامية ، فمعظم حوارات الرواية تستخدم اللهج المحلية ، وفي مواضيع أخرى كانت لغة الحوار ممزوجة أو مختلطة بين العامية والفصحى ، أما السرد والوصف فاللغة المستخدمة فيهما هي اللغة الفصحى، وهي لغة الكاتب نفسه.

ومن بعض النماذج التي ظهر فيها امتزاج العامية بالفصحى في لغة الحوار ، ما قالته (صادقية) لابنها الشيخ (عيسى)، عندما حدثته وصرخت فيه قائلة : "يا عيسى ..عصيرة صاحبة عهد وميثاق.. فلا تذللّ بلادك بحرب، ما لها ذكر في أيّ كتاب عندي..."⁽⁶⁰⁾. فالحوار هنا خليط بين الفصحى البسيطة والعامية المفهومة والقريبة من الفصحى.

في حين توجد نماذج أخرى للغة الحوار، نجدها تميل إلى العامية أكثر من الفصحى، مثل قول بن شامي

"أنا قادر عليهم.. بس شارق في نحر امنباش..."⁽⁶¹⁾ ، كان (علي هباش) لا يتوقف عن النحيب والصراخ ، وإذا وصل بن شامي من ذلك الصراخ الفاجع سأل: فاطمة ما يقدر الهباش يسري يبايت معي؟ اسألوه إن كان يقدر يسري؟⁽⁶²⁾، فهذه نماذج حوارية مستغرقة في العامية واستخدام اللهجة

⁵⁹ آل مبارك ، محمد بن عبدالله منور، توظيف اللهجات المحلية في الرواية السعودية :رواية ساق الغراب أنموذجاً ، مجلة حقول نادي الرياض الأدبي السعودية عدد 13 ، 2017 م ، ص 188-189

⁶⁰ رواية ساق الغراب ، ص 19

⁶¹ المصدر السابق ،ص23

⁶² السابق نفسه ، ص 22-23

المحلية، ومن الملاحظ أن استخدام هذه اللهجة يرتبط به ذكر عادات لغوية ملازمة للغة الجنوب أو اللغة المحلية لأبناء المنطقة .

(4) أقسام الحوار وأنواعه:

ينقسم الحوار في الرواية إلى قسمين :

1- أولاً : الحوار الخارجي (الديالوج):

وهو الحوار الذي يدور بين شخصيتين أو أكثر، في إطار المشهد داخل العمل بطريقة مباشرة، وتطلق عليه تسمية الحوار التناوبي: أي الذي تتناوب فيه شخصيتان أو أكثر بطريقة مباشرة، إذ إن التناوب هو السمة الإحداثية الظاهرة عليه⁽⁶³⁾ و من خلال تحليل بعض نماذج للحوار الخارجي الذي دار بين الشخصيات، تظهر لنا ملاحظتان: الأولى: أن الحوار الخارجي يمتزج فيه إلى حد كبير اللغة العربية الفصحى البسيطة مع العامية ، و إن كان يغلب على بعض الحوارات استخدام العامية ، والملاحظة الثانية: أن الحوار الخارجي في الغالب مرتبط بالمكان، ويدل على انتماء الشخصيات لهذه الأماكن، و من هذه النماذج :

محاولة الحوار في بعض المواضع ربط الشخصية بالمكان، وإعلان انتمائها وولائها له، ويظهر ذلك مثلاً عندما قالت (صادقية) للشيخ (عيسى الخير): "أنا بنت عصيرة، شiche بنت شيوخ ، والله لو الناس شَمّوا أمعنقريز من سبخة البحر يا قوم الإمارة ما يلمسون حمود..."⁽⁶⁴⁾ ، فتمة اعتزاز بالمكان وإعلان الانتماء له يظهر في سياق هذا الحوار.

ودائماً ما يظهر الحوار ذلك الصراع الذي يدور من خلال أحداث الرواية ، وهناك حوارات كثيرة فيها نوع من الفخر والاعتزاز بالمكان وأيضاً الرغبة في الدفاع عنه ، مما يعني أن الكاتب استخدم الحوار لإظهار قيمة الدفاع عن المكان ، ومثال ذلك أيضاً حوار الشيخ (عيسى الخير) مع بعض مآهل القرية : "اللّي يشلّ بندق أو حتى شفرة ويدخل بلادنا ما يشا إلا الموت يا لنا يا له"⁽⁶⁵⁾.

⁶³ فاتح عبدالسلام ، الحوار القصصي ، تقنياته وعلاقاته السردية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 ، بيروت ، 1999 ، 21: وينظر : الحوار في الرواية الإعصار والمؤذنة لعقاد الدين خليل ، المجلد السابع ، مجلة كلية العلوم الإسلامية ، العدد الثالث عشر ، 1434 ، 2013 ، ص4
⁽⁶⁴⁾ -رواية ساق الغراب، ص82
⁽⁶⁵⁾ - المصدر السابق، ص 117-118

وقد كان الحوار أيضاً فرصة للشخصيات في إظهار نواحي الصراع بينها ، وإظهار خلافها على السيطرة على المكان ، وقد ظهر ذلك في حوارات (صادقية) التي تؤكد فيها رفضها لسلطة (المقري) ، حيث تقول له: "وذا الحين يا فاجر أنت مقروع بالدين وبشرع عصيرة ووداي الحسيني ، واخرج من هذي القرية، ولا تتور الدنيا بكرة ولك ذكر ها هنا..."⁽⁶⁶⁾، فهذا الحوار يظهر أثر الصراع بين الشخصيات أولاً ، وثانياً يظهر اعتزاز صادقية بتاريخ عصيرة ووداي الحسيني ، لأن هؤلاء لهم شرع ولهم عادات وتقاليد تمثل أهمية كبيرة لدى الشخصيات.

2- الحوار الداخلي (المونولوج):

الحوار الداخلي هو مناجاة للنفس حيث يقوم الإنسان بحوار مع نفسه ، وبالتالي يظهر مكنون الشخصية، وربما ما يميز الحوار الداخلي عن الخارجي، أن الناس لا يطلعون على ما يدور في نفس الإنسان، إلا إذا تكلم ونطق وتجاوز مع الآخرين ، ولهذا يمكن تعريف الحوار الداخلي بأنه "الكلام غير المسموع وغير الملفوظ ، الذي تعبر به الشخصية عن أفكارها الباطنية، التي تكون أقرب ما تكون إلى اللاوعي، وهي أفكار لم تخضع للتنظيم المنطقي؛ لأنها سابقة لهذه المرحلة، ويتم التعبير عنها بعبارات تخضع لأقل ما يمكن من قواعد اللغة؛ لكي توحى للقارئ بأن هذه الأفكار هي عند ورودها إلى الذهن"⁽⁶⁷⁾، وهنا نؤكد أهمية الحوار الداخلي في أنه يبين الصراع النفسي للشخصية ، ويبين أيضاً ارتباط الشخصية بالمكان، وهذا ما ظهر في بعض الحوارات الداخلية في الرواية ، ومنها :

- عندما قال (حمود الخير) لنفسه : "يقتلونني.. لكن ما يلمس واحد منهم رجولتي وأنا ابن عصيرة"⁽⁶⁸⁾ ، ففي هذه الحوار الداخلي نرى (حمود الخير) يعتز بانتمائه لعصيرة، ويذكر هذه العبارة مراراً وتكراراً وهو أنه (ابن عصيرة) ، فحواره مع نفسه يدل على قمة هذا الاعتزاز.

- ومن الحوارات الداخلية المهمة في الرواية، والتي تظهر بعداً عظيماً من أبعاد شخصية (صادقية)، وارتباطها القوي بعصيرة ووداي الحسيني، هو ما قالته لنفسها "

((66)) - السابق نفسه ، ص 206

((67)) - ليون إيرل ، القصة السايكولوجية، ترجمة : محمود السمرة ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، 1959:

117، وينظر : الحوار في الرواية الإعصار والمثمنة، ص13

⁶⁸ - رواية ساق الغراب ، ص12

من كان يستحق عيوني غير وادي الحسيني؟.. رضيت بالعمى ويبقى لأهل عصيرة كلّ هذا التاريخ!"⁽⁶⁹⁾ ، وهذا الحوار الداخلي يظهر لنا تضحياتها؛ فقد ضحت بنفسها وبصرها من أجل وادي الحسيني وأهل عصيرة، حتى يحفظ لها تاريخها.

- ومن الملاحظ أيضاً أن اعتماد الكاتب على الحوار الداخلي، جعل منه نوعاً من الهمس والمناجاة، وطرح التساؤلات في حوار النفس مع ذاتها ، ولهذا كانت (صادقية) تحاور نفسها " تُوقد روحها بالسؤال: (ما ضرّ هذا الجبل وأخاه في شهادة لقاء، ما حفظه أهل هذا الوادي لهما من قصّة، تواترت من دم إلى دم طوال آلاف السنين، دون أن يجلو من حقيقتها شيء؟)"⁽⁷⁰⁾

- وعندما ننظر إلى (شريعة) أيضاً في حديثها وحوارها مع نفسها ، نجد أن هذا الحوار يظهر الجوانب الكامنة في شخصيتها المميزة ، ويظهر عواطفها وأحاسيسها ، فكان هدفها ومناها أن تكون فريدة "منالك هو أن تكوني فريدة الزمان والمكان فتختارين - كسادة الوادي - موتاً خالصاً للمجد وليس سواه .. ليس سواه"⁽⁷¹⁾، وتختار لنفسها المجد والشموخ ، فقد كان لدى أهل قرية (عصيرة) عقيدة ، هي أنهم يختارون لأنفسهم طريقة ومكان الموت، الذي يجسد لهم المجد والشموخ والعلو؛ ولذا كانوا يذهبون إلى قمم الجبال ، وكأن ثمة ارتباط بين فكرة الموت والرحيل وتلك الأماكن الجبلية الشامخة.

- مناجاة الأم (صادقية) لربها، وطلبها أن يخفف عنها، فهي تحب هذه الأرض وترتبط بهذا المكان " فأين هم الآن يا ربّي .. يا ربّي لقد أثقلت عليّ كثيراً في هذا الامتحان .. لم يا ربّي أنا.. سأحب هذي الأرض أكثر .. سأغرس قلبي في طينها أعماق ، لكن يا ربّي .. هي يد واحدة على هذا الكتف.. هي يد واحدة على الكتف ..فهااتها لي.." ⁽⁷²⁾ ، هذه المناجاة هي قمة وذروة الحوار الداخلي ، والتي تظهر رغبتها الشديد في البقاء في أرضها، وتظهر مدى حبها لهذه الأرض .

وقد استنتجت الباحثة أن أكثر ما جاء في الرواية من الحوار الداخلي للشخصيات، كان وثيق الارتباط بالمكان، فكلما تأملت معظم الحوارات الداخلية أو (المونولوج)، أو

⁶⁹ - المصدر السابق ، ص 234

⁷⁰ - السابق نفسه ، ص 286

⁷¹ - نفسه ، ص 287

⁷² - نفسه، ص 293

الحوار الذي يدور بين الشخصية ونفسها، وجدت في هذا الحوار جزءاً من المكان أو الحديث عنه ، وهذا بطبيعة الحال يظهر مكنون الشخصية ، ويكشف عن أحاسيسها ومشاعرها ، ونستطيع هنا من تحليل أكثر هذه الحوارات، أن نؤكد على وجود ارتباط قوي في الوعي واللاوعي للشخصيات، وأن ذاكرة الشخصيات دائماً تشدهم إلى المكان .

المطلب الرابع : علاقة المكان بالزمان :

لا يمكن تخيل الرواية بدون زمان تدور فيه الأحداث، كما لا يمكن تخيل الرواية أو القصة بدون مكان تتحرك من خلاله هذه الأحداث ، فالزمان والمكان ركنان أساسيان في البنية السردية للرواية ، بالإضافة إلى وجود علاقة وثيقة بينهما؛ ولهذا لا بد من الوقوف على تعريف الزمان لغة واصطلاحاً؛ لكي نتضح لنا أسس العلاقة بين الاثنين .

الزمان لغة : ورد في لسان العرب (زمن) " الزمن والزمان: اسم لقليل الوقت وكثيره ، وفي المحكم : الزمن والزمان العصر، والجمع أ زمن وأزمان وأزمنة ، وزمن زامن: شديد، و أ زمن الشيء: طال عليه الزمان"(73).

الزمان اصطلاحاً: " الزمن هو المظهر النفسي اللامادي، والمجرد اللامحسوس ..، ويتمظهر في الأشياء المجسدة"(74) ، وربما ندرك الفرق بين الزمن والمكان، في أن الزمن كما ورد في التعريف السابق مظهر نفسي لا مادي ، في حين أن المكان يعد مظهراً محسوساً وملموساً ومادياً ، وهذا فارق جوهري بين الزمان والمكان ، وعلى الرغم من هذا الاختلاف في طبيعة كل منهما ، فإنهما لا يستغني أحدهما عن الآخر "عندما نتحدث عن المكان، فإننا نتحدث عن زمانه؛ ولذلك يعد الزمان أحد أبعاد المكان"(75)، ولهذا طرح عند البعض مفهوم (الزَمَكان) ، وهو مزج و تداخل بين (الزمان والمكان)، حيث أن الزمكان" هو انصهار علاقات المكان والزمان في كل واحد مدرك ومشخص ، الزمان هنا يتكثف ، ويتراص ، ويصبح شيئاً فنياً مرئياً ؛

⁷³ - محمد بن منظور، لسان العرب (ز. م. ن) ، ص 199

³ -مرتاض، مرجع سابق، ص 198

⁷⁵ - مهدي عبيدي، ص 225

والمكان أيضاً يتكثف ، يندمج في حركة الزمن والموضوع، بوصفه حدثاً أو جملة أحداث⁽⁷⁶⁾.

الترتيب الزمني للأحداث :

قسم الكاتب الرواية زمنياً بناء على أهم الأحداث التي حدثت فيها، وهي أيام طويلة وممتدة من كثرة ما حدث فيها ، فاستغرقت أهل القرية أجسادهم، و استغرقت زمنهم ما يقرب من العقد ونصف العقد ، ويحدد الكاتب هذه الأحداث بخمسة عشر عاماً ، كان أولها (الهربة) ، ثم رحيل (بشبيش) ثم دخول (المقرئ) القرية .

وبالنظر إلى رحيل (بشبيش) ، الذي يمثل في الرواية واحدة من أهم الأحداث المفصلية، سنجد أنها تعني هروب العادات و التقاليد و الشجاعة، التي كانت تظهر في شخصية (بشبيش) ، يقول الراوي : " ثلاث نوازل قد طوت أيامها الطويلة على مضضهم ، فاستغرقت قوة أجسادهم وطمأنينة أرواحهم ، وكان ما يقارب عقد ونصف العقد من الزمان، ماضيين كفيلين بتلك الولايات ، التي كان أولها الهربة ، وثانيها رحيل بشبيش، ثم دخول المقرئ القرية"⁽⁷⁷⁾.

ومن الملاحظ أن الترتيب الزمني للأحداث في رواية (ساق الغراب) يتم عن طريق المكان ، ولولا المكان كإطار تتحرك فيه الأحداث زمنياً، لما ظهرت لنا بهذا الشكل ، فقد حاول الكاتب أن يحافظ على بنية الزمن المرتبطة بالمكان بشكل دائم ، وأيضاً في المفارقات الزمنية التي تعد آليات وتقنيات ، يستخدمها الكاتب للتعبير عن الزمن ، فمنهم ما يستخدم تقنية الاسترجاع ومنهم الاستباق، وبالنظر إلى الرواية سنجد أن طريقة الاسترجاع تدور بين مكانين أساسيين: المكان الأول: هو القرية ، والثاني: جبل (مدقم) ، فأكثر الوقفات التي يقف فيها الكاتب؛ ليسترجع ذكريات الماضي ، ويربط هذه الذكريات بالمكان، وهذا يؤكد لنا في أكثر من مسار ، أن الكاتب مزج بين المكان والزمان، وجعلهما في إطار مشترك ، تتحرك من خلاله الشخصيات والأحداث ، ليضيفي على الرواية طابعاً خاصاً.

⁷⁶ - بختين ، مخائيل ، تر: يوسف حلاق ، أشكال الزمان والمكان في الرواية ، (سوريا، مكتبة الأسد ،

1990) ص6

⁷⁷ - رواية ساق الغراب ، ص 188

مستوى الترتيب الزمني للرواية (المفارقات الزمنية):

يتجلى ظهور الزمن في الرواية، وطريقة الكاتب في ترتيبه في عدة مفارقات أو وسائل منها :

أ- الاسترجاع أو (الاستدكار): وهو " يشكل كل استرجاع ، بالقياس إلى الحكاية التي يندرج فيها- التي ينضاف إليها- حكاية ثانية زمنياً، تابعة للأولى في ذلك النوع من التركيب السردى"(78)، والاسترجاع نفسه نوعان :

1- استرجاع خارجي : يعرفه (جيرار جينيت) بقوله إن : "الاسترجاعات الخارجية - لمجرد أنها خارجية - لا توشك في أي لحظة أن تتداخل مع الحكاية الأولى؛ لأن وظيفتها الوحيدة هي إكمال الحكاية الأولى، عن طريق تنوير القارئ بخصوص هذه السابقة أو تلك"(79).

وقد استخدم الكاتب تقنية الاسترجاع الخارجي، مستعيناً بأحداث تاريخية خارج سياق الأحداث الرئيسية للرواية ، ومنها قوله" وقد تحققت تلك النبوءة في رجل خرج من العامة، هو الإدريسي الذي كان في يوم قديم ، حاضراً سوق صبياء "(80) ، فهو يستدعي شخصية الإدريسي ويسترجع الحدث التاريخي ، لكنه يستدعيه من خارج سياق الأحداث في الرواية .

ومن الاسترجاعات الخارجية أيضاً أن (بشيبش) كان يستدعي شخصية (بن شامي) " تذكر بشيبش ذلك عن بن شامي، الذي ما كان له أن يدعه يسير وحشة هذا الليل وحيداً ، فقد كان قبل سنوات بعيدة يصطحبه، حتى في ورود ماء البئر ، وذلك أقل الأعمال شقاء ونادراً ما يقوم به الرجال "(81).

وتستمر الاسترجاعات وصولاً إلى فترة حياة الشريف مشاري، فهو "قديماً كان الشريف مشاري يذكرهم بأن البنادق تموت مع أصحابها ، ومن يعود لحياضه بلا بندقيته فكأنما عاد بلا ذكره "(82).

((78)) - جيرار جينيت : خطاب الحكاية ، تر: محمد معتصم ، ط2 ، الدار البيضاء ، المغرب ، دت، ص60

((79)) - المرجع السابق ص61

((80)) - رواية ساق الغراب ، ص19

((81)) - المصدر السابق ، ص 79

((82)) - السابق نفسه ، ص 110

وكان العنصر الأساسي للكثير من الاسترجاعات، هو تذكر حكايات ماضية بعضها يتسم بالأسطورية والخرافية، أو الحديث عن القوة الخارقة، مثل قوله: "وقد كانت قبل ذلك تسمع حكاياته من فم والدها النماري، وأعجبت به عندما استطاع النيل ببندقته من عشرين رجلاً في مساء واحد" (83).

وحتى مع الأم (صادقية) كان هناك استرجاعات كثيرة، جعلتها تعود إلى ذكريات قديمة لها، في حالات الحب والعشق القديمة "وتحكي الأم أنها في أمسية قديمة- هي أمسية متجددة في قلبها دوماً - كانت تفكر في ابن حسينة، الذي يرى لحظتها في درب جدها الشريف نهاري" (84).

ومن الاسترجاعات الخارجية ذلك الحديث عن حضور الموالين من جبل (امدم) "ولم يعر كثير اهتمام لما ذكرته، عن ليلة دخل فيها الموالون من جبل امدقم قرية عصيرة، قبل نحو أربعة عقود من الزمن" (85)، وقد ظلت ليلة (امدم) علامة بارزة في هذه الاسترجاعات، "قبل حلول ليلة امدقم ببضع سنين، كان سوق الثلاثاء يشهد لقاءات متعددة بين الشيخ و الأمير" (86).

وهناك استرجاع مؤثر لتذكر (صادقية)، أنها ضحت بنظرها وعينها من أجل عصيرة، "وهي الآن تبذر سنانها الحادة في الذاكرة، من كان يستحق عيوني غير وادي الحسيني ... رضيت بالعمى ويبقى لأهل عصيرة كل هذا التاريخ، هكذا عزت روحها" (87).

2- استرجاع داخلي: وهي يختلف عن الاسترجاع الخارجي، في مدة علاقته بالأحداث، حيث أنه "يصل مباشرة بالشخصيات وبأحداث القصة، أي أنه يسير معها وفق خط زمني واحد في الحكاية، أي بعد بدايتها" (88).

ومن الاسترجاع الداخلي في الرواية، تذكر تلك المجاعة التي حدثت منذ سنوات "في ذلك العام ذكرتهم الأم بسنة "كشمة"، عندما كثر الجوع عن أسنانهم من شدة الفاقة،

(83) رواية ساق الغراب، ص 132

(84) - المصدر السابق ص 133

(85) - السابق نفسه ص 139

(86) - نفسه ص 179

(87) - نفسه، ص 234

(88) - لحميداني، مرجع سابق، ص 74

والتهموا قطع الطين في البيوت والطروقات" (89)، فهذا الاسترجاع الداخلي يذكرهم بأحداث شبيهة بما يحدث اليوم، وكأن المحنة والابتلاء يتجدد، حيث أن المجاعة القديمة كأنها عادت اليوم في شكل جديد، فالهربة والنزوح لأهالي عصيرة يذكر بما حدث قديماً من مجاعات، جعلت الناس يأكلون الطين، وهناك بالإضافة إلى ما سبق، كثير من الاسترجاعات الداخلية للأم (صادقية)، أثرت على الأحداث الحالية، وقد لاحظت الباحثة أن أكثر ما استرجعته الأم (صادقية)، كان له تأثير على الأحداث الآنية أو الحاضرة في الرواية، ومنها استرجاعها لقصة حبها، وهذا بطبيعة الحال أثر على مجريات الأحداث، وكان سبباً في مقتل ولد (الهيجة)، وكراهية (صادقية) للقرية وأهلها.

3- الاستباق أو (الاستشراف):

إنها آلية أو طريقة من طرق التتابع الزمني للأحداث، ويعرفها (جيرار جينيت) بأنها " كل حركة سردية، تقوم على أن يروى حدث لاحق أو يذكر مقدماً" (90)، وقد بدأت الرواية بذلك المشهد، الذي قام الكاتب باستقطاعه من داخل الأحداث، عندما ذكر حدث ختان (حمود الخير) لنفسه، حيث وضعه في بداية الرواية، وكأنه كان يستشرف ما سيأتي من أحداث، تتغير فيها كل مقومات الحياة، وهذا يعتبر استباقاً وتمهيداً ومدخلاً لجزء من الأحداث، التي تحدث بعد ذلك في الرواية، بمعنى تقديم الأحداث لاحقة والمتحققة.

والاستباق أنواع من بينها:

1- الاستباق التمهيدي:

يعرف حسن بحراوي الاستباق ويحدد وظيفته، قائلاً: " في حالات كثيرة يكون الاستشراف مجرد استباق زمني، الغرض منه التطلع إلى ما هو متوقع أو محتمل الحدوث في العالم المحكي، وهذه هي الوظيفة الأصلية والأساسية للاستشرافات بأنواعها المختلفة" (91)، من أمثلة الاستباق التمهيدي التي وردت في الرواية، ما كانت تشعر به الأم (صادقية) من تنبؤات أو رؤى استشرافية: " بالتفاهم حول الإمارة صدقت رؤى الأم، حيث وضحت عند الهربة، أن الزمن القادم سيسرق الأبناء بمال زهيد من

(89) - رواية ساق الغراب، ص 199

(90) - جيرار جينيت: مرجع سابق ص 51

(91) - حسن بحراوي، مرجع سابق، ص 133

ورق ، وسيغادرون بلادهم وأراضيهـم إلى بلاد لن تظللهم بخير أبداً ، كما رأت يوم ذلك "(92) ، كانت تصدرها الأم بشكل رؤى و تحققت بالفعل ، و هذه الرؤية تحول الحدث المتوقع إلى حدث حقيقي ، وذلك عندما قالت الزمن القادم.

2- الاستباق الإعلاني :

الإعلان وظيفة من وظائف الاستشراف ، حيث "يقوم الاستشراف بوظيفة الإعلان، عندما يخبر صراحة عن سلسلة الأحداث ، التي سيشهدها السرد في وقت"(93) لاحق ، هذا النوع من الاستباق يستخدم فيه الراوي بعض الجمل أو العبارات أو الإشارات؛ ليخبر عما سيأتي سرده فيما بعد بصورة تفصيلية ، ومن أمثلة الاستباق الإعلاني: " بشيش الغائب حتى تلك الساعة "(94) هنا إشارة إلى مصير (بشيش) القادم ، كأن الكاتب يخبر عما سيحدث لبشيش فيما بعد ، الغائب حتى تلك الساعة، ثم يرسل الكاتب بعض الاشارات و العبارات التي تشير إلى هروب بشيش ، كأنه يعلن بين فترة و أخرى أن بشيش سوف يرحل بدليل " بعد رحيل بشيش يوقت وجيز "(95) .

المطلب الخامس: علاقة المكان بالسرد والوصف

ظهر مما سبق مدى ارتباط المكان بكل مقومات وعناصر العمل الروائي، وهنا نقف على علاقة المكان بالسرد والوصف ، ويمكن التأكيد على أنه لا يستطيع المتلقي للرواية، أن يتصور المكان ويحدد معالمه بدون السرد والوصف؛ لأنهما أقرب ما يكون إلى روح الكاتب وأسلوبه وشخصيته، التي يحاول من خلالها إظهار جماليات المكان الموجودة في الرواية .

أولاً : السرد .

أجمع النقاد والدراسون للفن الروائي ، أن هنالك دعامتين لهذا الفن ، الدعامة الأولى : وجود أحداث وحكاية ، أما الدعامة الثانية فهي : طريقة الحكى ، والتي تسمى السرد ، ومن تعريفات البنية السردية في النص الروائي، لابد من التفريق بين مفهوم المتن الحكائي وبين المبنى الحكائي " فالمتن الحكائي: هو مجموع الأحداث المتصلة فيما

(92) - رواية ساق الغراب ، ص181

(93) -حسن بحراوي ، مرجع سابق ، ص 137

(94) - رواية ساق الغراب ، ص31

(95) - المصدر السابق ، ص 190

بينها، والتي تكون مادة أولية للحكاية ، أما المبنى الحكائي فهو تعليق بالقصة كما يفترض أنها جرت في الواقع ، والمبنى الحكائي هو القصة نفسها ، ولكن بالطريقة التي تعرض علينا على المستوى الفني"⁽⁹⁶⁾

وقد كان الكاتب (يحيى امقاسم) على دراية كبيره بمفهوم السرد وأهميته ووظيفته ، حتى أنه استخدم كلمة السرد في الرواية ، ويعني بها الطريقة التي تحكى بها الحكاية ، حيث يقول " عندما انتهى ((مساوى)) من سرد حكايته شاجره ((بخيت)) شجار من لا يملك قوّة"⁽⁹⁷⁾، وقد تميز السرد لدى الكاتب في هذه الرواية بعدة خصائص تميز بها ، وسوف نصلها فيما يلي:

خصائص السرد في الرواية :

(1) استخدام اللغة الشعرية في السرد : تميز الكاتب (يحيى امقاسم) بقدرته على تطويع اللغة ، وجعلها قريبة التناول في الوصف الخارجي أو الداخلي ، وكانت طريقته المعبرة في السرد أن يستخدم اللغة الشعرية السهلة، التي تميل إلى التصوير والمبالغة في رسم الصورة، والتأثير الجمالي في المتلقي، ومثال ذلك تلك اللغة التي استخدمها في كثير من المواضع، ومنها قوله:

- "كان بشيبش قد أوقد الشمس قبل وقتها، ذلك حينما جرّ (ولد بلال) من على قاعدة نومه فجراً ، تحديداً قبل غروب نجم (الزهرة)؛ ليعزف بنايه العتيق لحن رقصة الجيش في الأزقة"⁽⁹⁸⁾، إنه يقوم بالوصف الدقيق لمظاهر الحياة الطبيعية بلغة تختار مفرداتها المؤثرة ، " تبدّت الجبال قبالة مخصّرة بغيوم داكنة تُبشّرهِ بليلة وفيرة الرعود والبروق "⁽⁹⁹⁾ وما لاحظته الباحثة أن الكاتب كان يعتمد المزج بين اللغة الشعرية والطقوس والعادات والتقاليد والأغاني والأهازيج المحلية التي تميز بها أهل المنطقة.

(2) استخدام الغموض والألغاز في بعض عبارات السرد: كان التشويق أحد التقنيات التي استخدمها الكاتب ، وذلك بإخفاء بعض المعلومات عن القارئ في بداية الرواية ، ثم وضوح هذه المعلومات والحقائق تدريجياً ، فقد حدث بعض الغموض وخاصة في أوائل الرواية، فكان هناك بعض الأشياء الغامضة والتي احتاجت إلى تفسير وتوضيح ، وبدأت

⁽³⁾ - لحميداني، مرجع سابق، ص 21

⁽⁹⁷⁾ - رواية ساق الغراب، ص 84

⁽⁹⁸⁾ - المصدر السابق ، ص 18

⁽⁹⁹⁾ - السابق نفسه، ص 35

تتضح معالم الصورة وتتكشف الحقائق مع التدرج أو التطور للأحداث ، مثال على ذلك هو تساؤل المتلقي في أول الرواية ، حول كيف ضحت (صادقية) بنظرها وأصبحت كفيفة، ثم نمضي بالتدرج مع أحداث الرواية؛ لنعرف أسباب هذا الغموض فيما بعد.

(3) استخدام اللغة المؤثرة في السرد : وقد استخدمت هذه اللغة بعناية وقصد من الكاتب ، خاصة في اللحظات التي تكون مفصلية وهامة ، ومنها لحظة خروج أهل (عصيرة) من قريتهم ، فهي لحظة خطيرة ومؤثرة ، وتحتاج إلى لغة خاصة في السرد ، تظهر مدى ارتباط أهل عصيرة بالمكان ، يقول الراوي "خرجوا وكأن لا بلاد من بعدهم ، لا رضع في المهد يلثعون لقلوبهم ، ولا نساء يرتكبن الأمل في إثرهم، يقفن على سهوب غادروها"⁽¹⁰⁰⁾.

(4) استخدام اللغة التوثيقية أحياناً من خلال الوصف والسرد : المكان حاضر بقوة في الرواية على المستوى الفني ، من خلال السرد المتتابع والوصف المستمر للمكان ، ولهذا تتفق الباحثة مع ما ذكره الباحث محمد الحرز، من أن " المكان: قرى وادي الحسيني، وسلسلة جبال السروات المحيطة ، حاضر ومؤثر بقوة في جانبه النفسي والروحي والأسطوري في حياة معظم الشخوص "⁽¹⁰¹⁾، لكن الباحثة تختلف مع بقية كلامه والذي يرى فيه أن " الجانب الوصفي منه خصوصاً في تفاصيله الجزئية، لم يحظ بما يجب من طرف الرواية، ولم يحتل مساحة كافية في السرد "⁽¹⁰²⁾ وما يختلف فيه هنا ، هو أن الرواية ليس بالضرورة أن يلتزم فيها الكاتب بذكر كل تفاصيل المكان جغرافياً ، كما يطالب الباحث ، خاصة وأن الكاتب (يحيى امقاسم) كان قد استخدم الوصف للمكان بشكل واضح في كثير من العبارات ، وليس من الضروري أن يكون محدداً في وصف جبل من الجبال، بطوله وارتفاعه وما يتميز به ، فالباحثة ترى أن الكاتب قد وصف الأماكن بالقدر الذي يناسب الشخصيات والأحداث ، وخاصة وأن الرواية مشحونة وملينة بالكثير من الأماكن، من ذلك قول الراوي : "عندما استقرّوا في (الحباطة) نازحين، كانوا قد اختاروا منها مكاناً يُسمّونه (القايم)؛ لإطلالته الشاهقة على الأودية من الجانبين ارتفاعه عن بقية الأرض الصخرية المحيطة"⁽¹⁰³⁾، فلو أخذ

⁽¹⁰⁰⁾ -رواية ساق الغراب، 17

⁽¹⁰¹⁾ - الحرز، محمد (٢٠٠٩). رواية "ساق الغراب" تعاضد السرد بين الحس الحيني والتموضع

الشعري" علامات في النقد، جدة، النادي الأدبي الثقافي ، مج ١٨، ج ٦٨، ٦٩، ص 965

⁽¹⁰²⁾ - المرجع السابق ، ص 965

⁽¹⁰³⁾ - رواية ساق الغراب ، ص29

الكاتب في وصف كل مكان من هذه الأماكن الكثيرة، وصفاً تفصيلياً بكل الجزئيات؛ لتحولت الرواية إلى كتاب في الجغرافيا ، فالكاتب ليس مطالباً ككاتب روائي، أن يصور - بشكل توثيقي كامل - المكان بكل أبعاده، وإنما المطلوب هو تصوير المكان وفقاً للأحداث ووفقاً للشخصيات ، وهو ما يمكن أن نسميه (الوصف الفني) للمكان ، الذي يتخطى (الوصف الجغرافي) له .

(5) كثرة الأماكن التي ورد ذكرها في السرد. اعتبر الكاتب الرواية سجلاً لتاريخ أسماء الأماكن في هذه المنطقة ، والملفت أن التعبير عن هذه الأسماء للأماكن، كان في أكثره باللهجة المحلية ، مثل جبل (امدقم) ، الذي يعني (الدقم) ، فحولت الألف واللام إلى ميم على عادة وطريقة أهل المنطقة .

(6) الفرق بين لغة السرد ولغة الحوار. ذكرت الباحثة فيما سبق أن لغة الحوار التي تدور بين الشخصيات، كانت في أغلبها باللهجة المحلية أو بالعامية ، وإن كان هناك المزج بين الفصحى السهلة والعامية، أما لغة السرد والوصف – وهي لغة الكاتب نفسه، وليست لغة الشخصيات – فقد لاحظت الباحثة أنها كانت في أغلبها بالفصحى، بل ارتقت إلى أن استخدمت اللغة الشعرية ، وهي لغة لها خصوصيتها وتأثيرها على المتلقي .

فمن المؤكد أن هناك اختلافاً واضحاً بين لغة السرد والوصف وبين لغة الحوار ، حيث كانت البنية الأسلوبية في السرد والوصف مليئة بالطاقات التعبيرية المتميزة، والتي وصلت إلى حد اللغة الشعرية ، ولهذا يجب أن نقف على تعريف للبنية الأسلوبية من ناحية، واللغة الشعرية من ناحية أخرى.

فالبنية الأسلوبية: يقصد بها "مجموعة الطاقات الإيحائية في الخطاب الأدبي" (104) ، بحيث تنطوي جملة الأساليب التعبيرية في النص الروائي على بنية محكمة، تصب في إبراز القيمة الفنية والجمالية للعمل الروائي .

أما اللغة الشعرية : فإنها " تلك اللغة التي تنساب في النص الروائي، معتمدة على الإيقاع الموسيقي والجمال والألفاظ، التي تتداعى على النفس في المناجاة النفسية ، أو التداعي الحر للمعاني ، أو التأمل ، أو الاستبطان " (105) ، والسؤال المطروح هنا: هل

((104)) – المسدي ، عبدالسلام، الأسلوبية والأسلوب – الدار العربية للكتاب ، ط3، ص95

((105)) - جريدي، سامي ، الرواية النسائية السعودية: خطاب المرأة و تشكيل السرد ،مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، 2008 م، ط1، ص 130، ينظر : البنية السردية في رواية ساق الغراب " ، ص 398

استخدم الكاتب اللغة الشعرية في السرد والوصف؟ نستطيع أن نقول نعم؛ لأن الكاتب قد استخدم اللغة الشعرية في مواقف درامية كثيرة، وقد ذكرت الباحثة سابقاً بعض النماذج التي استخدم الراوي للغة الشعرية في السرد والوصف، ومنها عندما قال: "كان بشييش قد أوقد الشمس قبل وقتها، ذلك حينما جرّ (ولد بلال) من على قعادة نومه فجرًا ، تحديداً قبل غروب نجم (الزهرة) ؛ ليعزف بنايه العتيق لحن رقصة الجيش في الأزقة"⁽¹⁰⁶⁾، واستعمل الراوي أيضاً اللغة الشعرية من خلال كتابته لكثير من الأغاني، الموجودة في الموروث الشعبي التاريخي لأهل المخلاف، حيث يعتبر ذكر الأغاني الشعبية نوعاً من التفكير بالتراث، أو استعادة الذاكرة الشعبية للموروث الشعبي لأهل هذه المنطقة، من ذلك عندما راح أعيان (عصيرة)، وفي مقدّمهم (الهباش)، يشحذون أرواحهم لغبطة لا وصف لها، حين كانوا يسمعونها تردد غناءها فيهم:

(كثر الله خيركم يا شعب عالي

يا رقيب في السما ..ما تزال

هبلنا ساعات نور..

في عصيرة فرج المعلوم وصفه

والصبي لا مر بك بارود عرفه

أهل حيكَة مصلبات)⁽¹⁰⁷⁾

(7) استخدام الواقعية السحرية في السرد والوصف . وكما سبق وأن عرفنا الواقعية السحرية، والتي تعني التوازن بين عنصرين: الواقعي والخيالي، حيث استخدمها الكاتب (يحيى امقاسم) في مواضع كثيرة، عندما تحدث عن الموالين والجن، وهذه الطريقة من الواقعية السحرية قد ميزت أسلوب الكاتب خاصة في السرد والوصف، حيث جمع بين الواقع الفعلي وبين المتخيل والأسطوري.

(8) جرأة الأسلوب : اتسم أسلوب الكاتب بالجرأة في تناول بعض القضايا، والأمور الحساسة اجتماعياً، واستخدم اللغة التي قد تبدو قاسية في بعض الأحيان، عندما وصف طريقة ختان (حمود) نفسه "يُمسك بفأس، لنصلها وميض خاطف، وهو يقتعد قطعة

⁽¹⁰⁶⁾ - رواية ساق الغراب، ص 18

⁽¹⁰⁷⁾ - المصدر السابق، ص 125

خشى كبيرة داخل الأحرار ، عارياً وواضحاً ذكره على حجر صوان، يلمع أمامه كسطح غيل ساكن، وذلك استعداداً لعملية الختان⁽¹⁰⁸⁾، أيضاً تتسم الرواية بكثير من الجراءة في معالجة القضايا الاجتماعية والأسرية ، ومنها استخدام التعبيرات الجنسية التي يعبر عنها أحياناً بشكل مباشر ، أو عن طريق الإشارة والإيحاء.

ثانياً: مفهوم الوصف:

الوصف لغة : جاء في لسان العرب (الوصف) " وصف الشيء له وعليه وصفاً، وصفه :حلاه، والهاء عوض من الواو ، وقيل الوصف: المصدر، والصفة: الحلية⁽¹⁰⁹⁾"

الوصف اصطلاحاً: عرفه البعض بأنه "نشاط فني يمثل باللغة الأشياء والأشخاص والأمكنة وغيرها، وهو أسلوب من أساليب القصّ يتخذ أشكالاً لغوية، كالمفردة والمركب النحوي والمقطع، وأياً يكن شكله اللغوي، فهو يخضع لبنية أساسية"⁽¹¹⁰⁾ ، وهذا التعريف يدل على ارتباط المكان بالوصف ارتباطاً كبيراً؛ لأن الوصف أحد أهم الطرق والآليات التي من خلالها يتصور المتلقي للرواية أبعاد المكان وملامحه.

ولذلك فإن " ضوابط المكان في الروايات متصلة عادة بلحظات الوصف، وهي لحظات متقطعة أيضاً، تتناوب في الظهور مع السرد، أو مقاطع الحوار، ثم إن تغيير الأحداث وتطورها يفترض تعددية الأمكنة واتساعها، أو تقلصها حسب طبيعة موضوع الرواية"⁽¹¹¹⁾ ، وهذا يعني أن المكان يتجسد في الرواية من خلال ثلاثة آليات: أولهم السرد، ثم الوصف ، ثم الحوار.

بين الوصف والسرد:

العلاقة بين السرد والوصف علاقة قوية وثيقة ؛ لأنه يساهم في نمو وتطور الأحداث، و يعطي فكرة عن الشخصيات ، والوصف والسرد كلاهما يقوم به الكاتب بنفسه، دون أن يستعين بالشخصيات ،"فالوصف واحد من أهم مقومات النص السردي ، وهو غالباً ما يأتي مع السرد ،لدرجة يصعب معها تصوّر مقطع سردي خال من الوصف ،

⁽¹⁰⁸⁾ – رواية ساق الغراب ، ص 11

⁽¹⁰⁹⁾ - ابن منظور :لسان العرب ،ص 356

⁽¹¹⁰⁾ -القاضي ، محمد وآخرون ، معجم السرديات ، دار محمد علي للنشر، تونس ، ط 1، 2010،

ص 472

⁽¹¹¹⁾ - لحمداني ، مرجع سابق ص 62-63.

فالنص في جملته ينقسم إلى مقاطع وصفية ، ومقاطع سردية ، وأيضا إلى حوار⁽¹¹²⁾، يعتمد الوصف على السرد ، فلولا السرد لما ظهر الوصف ، ويمكن القول إن الوصف أحد آليات وطرق السرد ، ولهذا لا بد من دراسة كل من السرد والوصف ، والتعرف على علاقة كل منهما بالمكان، وخاصة في رواية (ساق الغراب).

وبالنظر إلى الرواية سنجد أن هناك رابطاً يربط السرد بالمكان ، فلا ينسى الكاتب أبداً ربط عبارات السرد والوصف بالمكان ، فمن ذلك ما قام به من وصف لشخصية (شريفة) ، والتي أصبحت رمزاً للبقاء والاستمرار ، ورمزاً لذكرات المكان، حيث يقول الكاتب: "(شريفة) مازالت في مشاج البكاء ، تُلح على السماء أن تهبها تلك اليد الغائبة في عتمة طويلة وأبدية ، كان من تحتها خطٌ مستقيم لنبت يفرّ من الأرض، كروح تشغف لجذوة الرقص ، نبت أوله جذر الجبل وآخره قرية (عُصيرة)"⁽¹¹³⁾.

أنواع الوصف :

لا بد أن نقرر أهمية الوصف كدعامة أساسية ، للتعرف على مفاصل الرواية وعناصرها ، وأهم هذه المفاصل التعرف على: الشخصيات ثم التعرف على الأشياء ثم التعرف على الأماكن، فالوصف أولاً يساعد - بل هو العامل الأساسي - في رسم ملامح الشخصيات ، وثانياً : الوصف يعد العامل الأساسي أيضاً في التعرف على الأشياء ومنها الأحداث ، ثم- وهذا هو الأهم في هذا المبحث - نجد علاقة الوصف الوثيقة بالأماكن ، إذ أن الوصف هو المشكل لأبعاد المكان أو المصور الحقيقي له .

وهناك أنماط أو أنواع للوصف الذي يرتبط بالشخصيات، وهي نوعان : وصف خارجي ووصف داخلي ، أما **الوصف الخارجي** فهو القائم على رسم ملامح الشكل الخارجي ، أما **الوصف الداخلي** فهو وصف نفسي من الداخل " الوصف هو الرسم بالكلمات ، فالكاتب المبدع هو الذي يصف بدقة وإتقان ، وينقل القارئ أو المتنقل إلى الصورة التي يصفها ، ويجعله يجوب العالم وهو في مكانه، وهناك نوعين من أنواع

((112)) - عبد الملك مرتاض : تحليل الخطاب السردى (معالجة تفكيكية سميائية مركبة لراية زقاق المذق)،

ص 264

((113)) - رواية ساق الغراب ، ص 293

الوصف ، وهما الوصف المادي و الوصف النفسي ، والبعض يسميه الوصف الداخلي والخارجي" (114).

ويمكن رصد الوصف الخارجي للمكان في الرواية من بعض النماذج والأمثلة، فمنها وصف للأشياء ، ومنها وصف للأماكن ، ومنها وصف للشخصيات ، كما يلي :

يقول الراوي عند وصف الأماكن والأشياء "عندما استقرّوا في (الحباطة) نازحين ، كانوا قد اختاروا منها مكاناً يُسمّونه (القايم)؛ لإطلالته الشاهقة على الأودية من الجانبين، وارتفاعه عن بقية الأرض الصخرية المحيطة" (115)، فقد وصف الكاتب المكان وصفاً دقيقاً ، حيث يصف الارتفاع والانخفاض، ويذكر سبب تسمية المكان ، ويظهر لنا الكاتب لماذا سمي المكان (بالقايم) ؛ وذلك لإطلالته الشاهقة على الأودية من الجانبين، وارتفاعه عن بقية الأرض الصخرية المحيطة، وربما أيضاً لأنهم أقاموا فيه وقت النزوح.

ومن الوصف الذي استخدمه الكاتب للتعريف بعادات وتقاليد أهل المنطقة، وهذا موجود بكثرة في الرواية، مثل قوله: " وعن حصاد الموسم – أو ما تعارفوا عليه بالخريف- إذ خرف الزرع مستوياً للحصاد ، كانت آنية النساء مصفوفة تحت المقعد، مملوءة بالماء البارد، وقد غمسن فيها وُريقات الرياح؛ تعبيراً عن أملهنّ في رحمة الله بالمتوقّين" (116)، فقد وصف الحدث وصفاً تصويرياً ، متحدثاً عن العادات والتقاليد و الطقوس ، التي كان تمارس في هذه القرية ، خاصة وقت موسم الحصاد، الذي يسمونه بالخريف ؛ لأنه خرف الزرع وأصبح مستوياً للحصاد.

ومن أمثلة وصف الشخصيات من الخارج، ما قاله الراوي عن (حمود الخير): " وإزاره السفلي فاقع الحمرة من الأمام، جرّاء نزف حادٍّ ألّم به، إثر الخطأ الذي ارتكبه، عندما قطع جزءاً من حشفة.. وكان يتبعه خادماً الأمّ، وأنفاسهما تتصاعد هلعاً واطمئناناً في آن" (117)، فاستطاع أن يصف (حمود الخير) وصفاً خارجياً ، أظهر فيه رداءه الملوّث بالدم ، ومن وصف الشخصيات من الخارج نجد وصف ملامح

((114)) - كلثوم ، مدقن وآخرون جماليات الوصف في رواية عشي الليل لإبراهيم الكوني ، جامعة

قاصدي مرباح ورقلة ، لنيل شهادة الماستر في اللغة والأدب العربي ، تخصص أدب عربي حديث

ومعاصر، 2022 م ص8

((115)) - رواية ساق الغراب ، ص29

((116)) - رواية ساق الغراب ، ص39

((117)) - المصدر السابق، ص81

(صادقية) "وكثيراً ما كانت هيئتها محل اهتمام الغير وتعجبهم، حتى غدت تعرف بالتركية؛ لشبهها بالأتراك أو الحمر الذين حاربوا"⁽¹¹⁸⁾، ونفس الأوصاف الخارجية تنطبق على (عيسى الخير) "كان ابنها عيسى الخير على الآية ذاتها من الخلقة ، فهو مشهور بوسامة لا مثيل لها ، وبذلك الحسن الفريد تمايزت أسرتهم الحاكمة عن الأسر الرفيعة الأخرى في المنطقة"⁽¹¹⁹⁾ .

ويلاحظ على استخدام الكاتب الوصف الدقيق خاصة في ذكر التفاصيل الصغيرة ، وهو وصف تصويري يعطي صورة ملونة، ترسم ملامح الحكاية الشعبية ، حيث تصف الأصوات والألوان والرائحة ويستخدم بعض الكلمات العامية " أزهى الثياب من (عيبان) فاشتروا له إزار (الحطيم) الزاهية ألوانه ،وئُوج رأسه بإكليل النباتات العطرية من (كاذي) و(بعيثران) و(خطورة)، وفي مفرقه طحينة حجر (الحسن الهندي) فاقعة الحمرة ، وعجينة الطيب الأخضر، التي تتخلل الشعر مضيئة لمحيطه رائحة زكية"⁽¹²⁰⁾، وهذه من خصائص الوصف لدى (يحيى امقاسم) ، الذي يستغرق في رسم ملامح السيرة الشعبية، أو الطقوس والعادات الشعبية القديمة، التي ربما لم تعد موجودة حتى الآن ، مما يجعل السرد يحمل صفة التوثيق التاريخي .

وقام الكاتب بوصف قرية وادي الحسيني عندما تركوها أهلها وبداية الهربة "أضحت قرى وادي الحسيني جرداء من أقدام الأطفال، الذين اصطفوا سيراً في قافلة النازحين ، وخالية من جرار الفتيات على الآبار... فخوت القرى تماماً من تباشير حياة القوم"⁽¹²¹⁾ .

ومن هنا ندرك أن الكاتب قد تميز بقدرته التصويرية على الوصف، ودقته في الكثير من العبارات، التي ترسم ملامح المكان، أما بالنسبة للوصف الداخلي ، فسوف نتناول الباحثة هذا الجزء عند الحديث عن البعد النفسي والذاتي للشخصيات، ومدى تأثير المكان عليها .

((118)) - السابق نفسه ، ص 238

((119)) - نفسه ، ص 238

((120)) - نفسه، ص 86

((121)) - نفسه، ص 21

المبحث الثاني : (تشكيل أنماط المكان في الرواية)

المطلب الأول: نمط المكان المفتوح و المغلق في الرواية:

إن تنوعات أنماط المكان كثيرة، وتظهر عادة في شكل ثنائيات متضادة ، فهناك مكان مفتوح ويقابله مكان مغلق ، ومكان حقيقي واقعي ويقابله مكان خيالي أسطوري ، ومكان حميمي مألوف ويقابله مكان غير مألوف .. ، وهكذا فإن هذا الثنائيات هي التي تحدد أنماط المكان وأشكاله ، وقد أصبحت ضرورة في دراسة البنية السردية؛ لأن هذه الأنماط تظهر لنا طبيعة المكان وعلاقته بكل عناصر الرواية ، إضافة إلى أن لها دلالات نفسية واجتماعية تظهر كوا من الشخصية ، وتحدد مسار الأحداث في الرواية؛ ولهذا فإن " الأمكنة بالإضافة إلى اختلافها من حيث طابعها، ونوعية الأشياء التي توجد فيها، تخضع في تشكيلاتها أيضاً إلى مقياس آخر مرتبط بالاتساع والضييق أو الانفتاح والانغلاق ، فالمنزل ليس هو الميدان ، والزنزانة ليست هي الغرفة؛ لأن الزنزانة ليست مفتوحة دائماً على العالم الخارجي بخلاف الغرفة، فهي دائماً مفتوحة على المنزل ، والمنزل على الشارع ، وكل هذه الأشياء تقدم مادة أساسية للروائي لصياغة عالمه الحكائي ، حتى أن هندسة المكان تساهم أحياناً في تقريب العلاقات بين الأبطال، أو خلق التباعد بينهم "(122).

وقد اختارت الباحثة نمطين متقابلين على درجة كبيرة من الأهمية ، وهما: نمط المكان المفتوح والمكان المغلق ، حيث أنهما من أشهر أنماط المكان دراسة وتحليلاً في الرواية ، نظراً لأن الرواية لا يمكن أن تخلو من أي من هذين النمطين ، فلا يوجد مكان إلا ويمكن وصفه بأنه مفتوح أو مغلق ، على عكس الأنماط المكانية الأخرى ، ولأهميتهما فقد تمت دراستهما من خلال رواية (ساق الغراب)؛ لنتعرف على طبيعة المكان وحدوده في هذه الرواية، ودلالات وتأثير المكان على الشخصيات وعلى مجريات الأحداث ، وستبدأ الباحثة أولاً في تعريف المقصود بالمكان المفتوح والمكان المغلق، كما جاء في أدبيات الدراسات النقدية التي تتعامل مع الفن الروائي .

((122)) - حميد لحمداني، بنية النص السردي ، ص 72

تعريف المكان المفتوح :

هناك تعريفات كثيرة وردت لتحديد مفهوم المكان المفتوح ، وقد أجمعت أكثر الدراسات والبحوث التي تناولت هذا المفهوم على أن المكان المفتوح يشترط له أن يكون مفتوحاً " من جانب واحد ، شرط أن تكون مفتوحة من الأعلى ، وإن هذا الانفتاح يعطي خصوصية كبيرة في داخل الشخصية من خلال إضافته الارتياح على روحها ، على الرغم من الحزن الذي يصيبها بفضل الظروف الطارئة ، وتدخل ضمن الأماكن المفتوحة: الطرق ، والأسواق، والحدائق، والمدن، والضواحي، والبساتين، والصحراء، وساحات الحروب، وغيرها" (123)

إذن ما يميز الأماكن المفتوحة والتي تمثل فضاء واسعاً ، يتحرك من خلاله شخصيات الرواية ، حيث تكون هذه الأماكن " متاحة لجميع الشخصيات القصصية، ولا تحدها حواجز وتسمح بالشخصية بالتطور والحرية، كالشوارع والحدائق العامة وما شابهها" (124) ، فالأماكن المفتوحة هي ملك للجميع ، وليست ملكاً لأحد ، إنها مساحة واسعة تعطي القدرة للشخصيات أن تتحرك وللأحداث أن تتطور "والأمكنة المفتوحة بصورة عامة دائماً ما تكون متاحة لجميع الشخصيات الروائية ولا تحدها حواجز ، وتسمح للشخصية بالتطور والحركة" (125).

دلالات الأماكن المفتوحة :

ومن المؤكد أن اختيار الكاتب أو الروائي للمكان المفتوح لم يأت عبثاً، وإنما يحمل دلالات مقصودة تظهر لنا جوانب من الشخصيات ، وتظهر لنا تفاعل الأحداث وتعلقها بالمكان ، فعندما يختار الكاتب مثلاً الصحراء أو الجبال، فمن المؤكد أنه يقصد دلالات معينة ، وعندما يختار البستان أو الشارع أو الحي أو الميدان ، فإن لهذا الاختيار دلالاته النفسية والاجتماعية، التي تظهر في أحداث القصة ، وهذا ما ستحاول الباحثة أن ترصده في أكثر الأماكن المفتوحة، التي وردت في رواية (ساق الغراب) ، وذلك كما يلي:

((123)) -المكان في روايات تحسين كرمياني، ص92

((124)) -محبوبة محمدي محمد أبادي ، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية ، ص 44

((125)) -المرجع السابق ، ص44

قائمة بأسماء الأماكن المفتوحة ودلالاتها :

(1) القرية:

لاحظت الباحثة أن فضاء القرية الواسع ، هو الذي سيطر على رؤية الكاتب المكانية في معظم الرواية ، فالقرية حاضرة ومسيطرة ومؤثرة، ليس على الكاتب وحده ، بل على كل شخصيات الرواية ، وهنا تكمن المفارقة في أن المقابل للقرية وهو المدينة كان مختلفاً وغائباً، فلم يظهر مفهوم المدينة ، أو الحديث عنها في داخل الرواية ، إلا عندما تكلم عن الإمارة التي جاءت مع أهل الشمال ، مما يعني أن الرواية تنظر إلى المدينة نظرة ريبة وشك وحذر وخوف وترقب ، فهناك روايات عديدة يكون الانتقال فيها من أجواء القرية إلى أجواء المدينة والعكس ، لكن ما نلاحظه هنا هو غياب المدينة ، وإذا ظهرت فهي تظهر على استحياء وخجل ؛ لأن الحضور الأساسي هو للقرية، التي حفرت في ذاكرة أهل (عصيرة) وفي وجدانهم خطوطاً عريضة .

فدلالة القرية في هذه الرواية تعني عدة أشياء :

تعني التاريخ والماضي العريق والموروث ، الذي يحاول أهل القرية الحفاظ عليه ، وتعني أيضاً الافتخار بالجذور والامتداد الإنساني في المكان ، وتعني كذلك الحياة الفطرية البسيطة غير المعقدة ، بالإضافة إلى أنها الجانب المحافظ بتقاليده وعاداته في مواجهة طوفان التغيير والتحديث؛ ولهذا يقول الكاتب عن الأم "كانت الأم تصرخ وتنذر بعظمة تاريخ قريتها، ومجد مكانتها العالية في القوم، المكتسبة من تليد الزمن ، وأقسمت لو أن الحرب اشتدت مع الإمارة دفاعاً عن (حمود)، إلى درجة أن الناس في الأرض السبخة بجوار البحر ، يشمون رائحة البارود ما لحق ابنهم سوء" ⁽¹²⁶⁾، وهذا يؤكد لنا أن المكان له دلالة تاريخية حرص عليها الكاتب من خلال المكان المفتوح ، فالقرية التي تمثل التاريخ العظيم و المجد الكبير الذي أكتسب منذ زمن ، و ثمة دليل على الصراع بين القرية و الإمارة ، فأهل القرية يقسمون أنه لو وصلت الحرب فسوف يطلقون النيران، حتى يشم رائحتها أهل الأرض السبخة بجوار البحر ، و من هنا يظهر بوضوح أن المكان المفتوح عبر عن أبعاد عميقة وممتدة .

((126)) - رواية ساق الغراب ، 82- 83

ومن دلائل ارتباط الشخصية بالقرية ، وما يحمله هذا الارتباط من دلالات ، حيث نجد في عبارات (صادقية) الكثير من هذه الدلالات ، تقول: " أنا بنت عصيرة ، شريحة بنت شيوخ "(127)، فالقرية تمثل الصمود وتمثل الكبرياء، وتمثل الحفاظ على التراث ، وتمثل أيضاً الانتماء الوطني حتى أنه يطلق عليها اسم (بلادنا) مما يعني أن القرية (عصيرة) قد أصبحت وطناً وبلاداً يجب الدفاع عنها ، وهذا ما ذكره (عيسى الخير) عندما قال: " اللّي يشلّ بندق أو حتّى شفرة ويدخل بلادنا، ما يشا الآ الموت، يا لنا يا له "(128).

ولهذا كانت (صادقية) تضع القرية في مقابل الإمارة كضدين متنازعين، القرية من جهة والإمارة من جهة أخرى، ولذلك كانت ترفض القيود والشروط والأوامر التي تصدرها الإمارة، مع مساعدة ابنها (الشيخ عيسى) الذي يقف إلى جانبها ويرفض سلطة الإمارة ، فهو يقول للأم (صادقية) " أما عن خوفك عليه من الإمارة، فأنا ولد الخير وأنت تعرفين ، والله لأخسف بهم واحد واحد..."(129) ، وهنا ندرك أن (صادقية) تمثل حجر الزاوية في بقاء القرية و أهلها ، على عاداتهم و تقاليدهم و ذكرياتهم و ماضيهم، وكل ما يتعلق بحياتهم . والقرية كمكان مفتوح داخل الرواية ، ظهرت في أكثر من صورة ووجه، فهناك قرية (عصيرة)، وهناك قرية (صبياء) ، والتي هي على خلاف مع الشيخ (عيسى الخير) ، وهناك الحديث عن القرى ، مما يعني أنه يوجد في ذاكرة الرواية عدد من القرى الأخرى المجاورة لعصيرة وصبياء ، وسوف نتناول هنا المدلول الذي خصصه الكاتب للقرية، فيما يلي:

(أ) **قرية عصيرة** رسم الكاتب (يحيى امقاسم) حدود قرية (عصيرة) جغرافياً بشكل دقيق ، في عبارته التي قال فيها: "أهل عصيرة من اكتساب مساحة كبيرة إلى واديهم الضخم، الذي يمتدّ من حدودهم مع صبياء غرباً، إلى منابت جبال عيبان و هروب شرقاً، و شمالاً إلى وادي نخلان ، ثم جنوباً حتى مطالع ضمد الشمالية "(130) ، ونستنتج من ذلك أن قرية (عصيرة) محاطة بالعديد من الجبال ، وذكر أنها (عيبان) و(هروب) ،

((127)) - المصدر السابق ، ص 82

((128)) - السابق نفسه ، ص 25

((129)) - نفسه ، ص 82

((130)) - نفسه ، ص 77

ومحاطة أيضاً بالوديان، فهناك وادي (نجلان)، مما يعطي اتساع الأفق المكاني، واختلاط الحدود بين هذه الأماكن بعضها البعض، وهذا التحديد الجغرافي يرسم ملامح القرية، ويؤكد أنها ذات خصوصية، فأبنائها ورجالها ونساؤها يكتسبون الكثير من صلابة الجبال، وشموخها وعلائها.

(ب) قرية صبياء: وهي تمثل القرية المنافسة لقرية (عصيرة)، ونحس من خلال الرواية أن (صبياء) على خلاف مع عصيرة، حتى أن الشيخ (عيسى الخير) ليس على وفاق مع شيخ صبياء، وكان يرفض لقاءه في مرات كثيرة، وهذا ما يؤكد الكاتب بقوله: "كان يرسل له أكثر من خطاب، للتداول معه في أي أمر ذي صلة بوادي الحسيني، فلا يُجيبه مطلقاً، وكلّ ما يفعله الشيخ تجاه الدعوة الخطيّة، هو وضعها تحت فراشه"⁽¹³¹⁾، وكان الشيخ (عيسى) يتهرب من لقائه ومن الذهاب إليه، يقول الكاتب: "إذا كان هو بحاجتي فبيتي واسع"⁽¹³²⁾.

ومما يدل على أن هناك صداماً وصراعاً بين القريتين المتنافستين، قول الكاتب: "عن ختان أبو حشفة لنفسه، يوم غامر الشيخ بدعوة أمير صبياء؛ لتفادي الصدام معه"⁽¹³³⁾.

(ت) الحباطة: يقابلنا في الرواية اسم (الحباطة)، ويبدو أنه مكان استقرت فيه جموع النازحين من (عصيرة)، لكن المؤكد أنها لم تكن قرية قائمة بالفعل، بل هو مكان عابر ومؤقت، يتحملهم وقت النزوح و(الهربة)، وليس مكاناً للإقامة الدائمة، وهذا ما عبر عنه الكاتب بقوله: "عندما استقرّوا في (الحباطة) نازحين، كانوا قد اختاروا منها مكاناً يُسمّونه (القايم)؛ لإطلالته الشاهقة على الأودية من الجانبين، وارتفاعه عن بقية الأرض الصخرية المحيطة"⁽¹³⁴⁾.

((131)) - رواية ساق الغراب، ص 13

((132)) - المصدر السابق، ص 13

((133)) - السابق نفسه، ص 185

((134)) - نفسه، ص 29

ويفهم من سياق الرواية أن (الحباطة) كانت موضعاً للنشاط ومستقراً للنازحين ، الذين يتناوبون مع غيرهم في الحراسة وتأمين الثغور ، يقول : "بعض النساء يتناوبن على بعض الثغور؛ لإحكام حراستها، فيما أخريات يُشكّلن همزة وصل مع النازحين إلى الحباطة"⁽¹³⁵⁾.

(2) **الوادي:** هناك الكثير من الأودية التي ورد ذكرها في الرواية ، وسوف نفصل القول فيها كما يلي :

أ- **وادي الحسيني:** وادي (الحسيني) الذي يمثل فضاء مكانياً واسعاً، يشمل أكثر من قرية ، وكأنه الحاضنة التي تضم وتحتضن كل القرى ، فهو وادٍ فسيح ومكان مفتوح ، يمثل المجرة بالنسبة لكوكب الأرض ، فكأن (عصيرة) هي كوكب الأرض ، وكأن (وادي الحسيني) هو المجرة التي يتحرك فيها الكوكب مع بقية الكواكب الأخرى .

وقد ذكره الكاتب أكثر من مرة في الرواية؛ لأنه -كما قلنا - مكان يمثل المركز الأساسي الذي تدور فيه الأحداث ، وهو مكان شاهد على الخروج والهربة ، يقول: " خرج بعض الناس من وادي الحسيني إلى جبال ساق الغراب"⁽¹³⁶⁾.

ويبدو أن دلالة اسم (وادي الحسيني) يشير إلى معنى الاتساع ، فهو العالم الرحب الذي يضم الجميع ، يقول: " لقد استحسنت صادقية رأي ابن أختها بشيبش، الذي رفع رؤوس الجميع، وصار وادي الحسيني شاسعاً بشكل يثير العجب"⁽¹³⁷⁾.

ب- **وادي ضمد وأودية أخرى:** وقد ورد ذكر أودية أخرى في الرواية ، لكنها لم تكن ذات تأثير قوي في الأحداث ، مثل (وادي ضمد) ، الذي جاء ذكره كمكان آخر ، يجتمع أهله مع أهل وادي الحسيني، "ثم اجتمع أعيان الطرفين، بحضور شيوخ من وادي ضمد و بلاد هروب"⁽¹³⁸⁾، وورد ذكر عدد آخر من الوديان مثل (وادي مور) و(الشقيق) و(وادي صبياء) وغيرها من الوديان.

((135)) - نفسه ، ص 26

((136)) - رواية ساق الغراب ، ص 186

((137)) - المصدر السابق ، ص 77

((138)) - السابق نفسه ، ص 77

ومما سبق يمكن القول بأن أسماء بعض الوديان جاء كدليل على التنوع والتعدد في الطبيعة المكانية ، في حين أن بعض الوديان الأخرى خاصة (وادي الحسيني) جاء كمكان مركزي ومؤثر.

(3) الجبال:

إن رواية ساق الغراب تعد رواية جبيلة بامتياز، حيث أن الجبال تمثل ركناً أساسياً فيها، كما لو أنها شخوص تتحرك وتتألم وتشعر ، لدرجة تشبيهها بالإنسان الذي يذهب في رحلة الحج إلى مكة، وفي طريق عودته يستقر في المكان ولا يتركه مرة أخرى ، إن هذا ما يمكن أن تسميه الباحثة (أنسنة الجبال)، وتعني به جعل الجبال كأنها إنسان، أو إضفاء الصفات والخصائص الإنسانية على جمادات، وجعلها تنبض بالمشاعر والأحاسيس، وقد تعددت أسماء وأشكال الجبال في الرواية ، فمن المؤكد أن ذكر الجبال لم يكن عبثاً أو عشوائياً ، بل كان يحمل من الدلالات الجغرافية والنفسية والاجتماعية المقصودة الكثير ، ومن دلالات الجبال كما وردت في الرواية :

فهي تعني الصمود والزهو ، وأيضاً تعني دلالة صعوبة الحياة ، بدليل أنه ذكر جبل (عكوة اليماني) و(عكوة الشامية) واصفاً الطرق القريبة منهما بأنها كثبان رملية "جبل عكوة اليمانية ليس يسيراً من جهته الشمالية، وخاصة المسافة التي تفصله عن جبل عكوة الشامية ، إذ تنتشر في تلك الجهة أشجار السمر الكثيف ، محاطة بالكثبان الرملية، التي يصعب على الجمل تجاوزها، ما لم يكن قائد المسير يعرف جيداً معابر تلك الناحية" (139) فهذا وصف دقيق للأماكن وخطورتها، من حيث صعوبة السير فيها ، مما يعني أن هذا المكان المفتوح كهذين الجبلين، يمثلان التحدي و الصعوبة في اجتياز بعض الطرق القريبة من هذه الجبال .

وتمثل الجبال أيضاً الصلابة والشموخ والعلو ، وتلك الدلالات النفسية والاجتماعية ، اكتسبها أهل (عصيرة) والقرى المحيطة بهذه الجبال ، فقد تركت أثرها على شخصياتهم وعلى سلوكهم، وعلى كثير من الأحداث التي دارت في الرواية ، وسوف تقوم الباحثة باستعراض أهم هذه الجبال، وأكثرها وروداً في الرواية وتأثيراً على بقية العناصر ، وهي كالتالي :

((139)) - رواية ساق الغراب ، ص76

1- جبال (ساق الغراب): رسم الكاتب لهذا الجبل تحديداً الكثير من الصور واللوحات ، ومنها قوله : "كانت سروات ساق الغراب تفسح من ردائها القاتم، كما لو أنها جبين الليل الهائل من الشرق" (140).

وأعطى أيضاً لهذا الجبل ومنحدراته صفة الاتساع والاحتواء ، بحيث أنه يضم النازحين والهاربين إليه ، يقول: " فيما الصبيان حملوا ما استطاعوا من مؤن العشائر ، بصحبة الأطفال والماشية والعجزة ، قاصدين ناحية الحباطة، من الجهة الشرقية حيث تتسع منحدرات جبال ساق الغراب" (141).

والنظر إلى (ساق الغراب) سنجد أنه يعطي إشارات على ما سيحدث من ظواهر مناخية، كالأمطار التي تلوح في الأفق ، من خلال رؤية السحب الداكنة أعلى قمة جبل (ساق الغراب) ، يقول: " تجول بنظرها إلى جانبي الجبل، فتري من الشرق جبال ساق الغراب ، وقد اعتلتها سحب داكنة ، تُنذر بمياه جرّارة ستندحر إلى الأودية" (142).

ويمثل الجبل وجهة للكثير من شخصيات الرواية ، ومنها (شريفة) ، حيث يقول: " خرجت الأم من مخدع ابنها، وطلبت رفقة شريفة ؛ لتخبرها بالاتجاه الصحيح المؤدّي إلى تلّ شارق، و فور صعودها للتل، صوّبت عصاها نحو جبال ساق الغراب" (143)، إنها الوجهة التي يصبو شخوص الرواية نظرهم ناحيتها ، وكأنهم كلما أثقلتهم أعباء الحياة ، يتجهون إلى هذا الجبل ليلتمسوا منه الصمود والشموخ.

ومن خلال كل ما سبق ، يمكن القول إن جبل (ساق الغراب) كمكان مفتوح ، يمثل قيمة كثيرة ودلالات متنوعة ، وأهمية واضحة في البنية السردية للرواية ، وليس أدل على ذلك من أن الكاتب، قد جعل اسم هذا الجبل عنواناً لروايته موضع الدراسة .

2- جبل (امدقم): وهو ثاني الجبال في الرواية من حيث الأهمية ، لكنه يختلف عن جبل (ساق الغراب) ، في أنه يكتسب صفات أسطورية

((140)) - المصدر السابق ، ص 36

((141)) - السابق نفسه ، ص 25

((142)) - نفسه ، ص 286

((143)) - نفسه ، ص 223

وخرافية ، يعتقد فيها أهل (عصيرة) وعلى رأسهم (صادقية) ، وهذا ما نلاحظه عندما استدعت ما حدث مع الموالين من أربعين عاماً ، وتذكرت رغبتهم في دفن الشيخ (مشاري) في جبل (امدقم) ، ورفضها لذلك " ولم يعر كثير اهتمام لما ذكرته عن ليلة، دخل فيها الموالون من جبل امدقم قرية عصيرة، قبل نحو أربعة عقود من الزمن، يحملون جثة الشريف مشاري؛ للتفاوض معها في دفن الجثة عندهم " (144)، وهذه العبارة تظهر أهمية هذا الجبل، وتشير إلى أن الموالين أو الجن يدفنون فيه جثث الذين يتفقون معهم، مثل (صادقية) أو الشريف (مشاري).

إذن يمكن القول أن هذا الجبل يمثل الجانب الخفي الغامض والخرافي في بعض أحداث الرواية ، فهو موطن الموالين ، وهم مجموعة من الجن، الذي يعتقدون اتفاقات مع (صادقية) ، وهي في ذات الوقت تنتظر دائماً أن يأتيها مبعوث منهم " كانت تنفرد بنفسها في انتظار مبعوث من جبل امدقم " (145)؛ ولهذا يمثل جبل (امدقم) أيضاً الرهبة والخوف والموت المحتمل ، وهذا ما تعرضت له (شريفه) على يد الموالين "البارحة باتت شريفة على براثن موت عريض، قاده الموالون من جبل امدقم " (146).

وتستنتج الباحثة أن جبل (امدقم) له دلالة خاصة، تختلف عن الدلالة العامة لجبل ساق الغراب ، وعندما نضع مقارنة أو موازنة بين الجبلين ، سنجد أن (ساق الغراب) له تأثير و حضور في كافة الرواية، و له تأثير على الشخصيات ؛ لأنه كان الملاذ لهم في وقت (الهربة) وتلك دلالة تاريخية واجتماعية ، في حين يمثل جبل (امدقم) دلالة خاصة على وجود الموالين، الذين يتبعون (صادقية) ، حيث يمتلك هذا الجبل تأثيره فقط على (صادقية) و(شريفه) والشيخ (مشاري) ، فهو لا يؤثر على القرية بصفة عامة، وإنما يؤثر على بعض الأشخاص ويحدد مسار حياتهم ودفنهم بعد موتهم .

((144)) - رواية ساق الغراب ، ص 139

((145)) - المصدر السابق ، ص 274

((146)) - السابق نفسه ، ص 244

3- جبل (عكوة الشامية) و جبل (عكوة اليمانية):

لاحظت الباحثة أن الأبطال أو الشخصيات عامة مرتبطة بالمكان، و بالجبال خاصة ارتباطاً عضوياً، حتى أن الحبل السري عند الولادة يقطع وتدفن منه أجزاء في هذه الأماكن؛ وتبدو هذه عادة قديمة عند أهل القرية، كان الغرض منها أن تربط الانسان بالمكان؛ وذلك يفسر ارتباط (شريعة) بجبل عكوة ؛ لأنها تميل إلى هذا الجبل" علمت الأم أن شريعة بدأت تميل إلى جبل عكوة، ففي الصباح التالي على ليلة ولادتها وباتجاه واديهم، تسالت زهرة تحمل الحبل السري لشريعة، فدفنت جزءاً منه على ذلك الجبل ، و الجزء الآخر دفنته بدار الشيخ في قرية عصيرة "(147).

وبالإضافة إلى ما سبق ، فإن هناك دلالة أسطورية وخرافية لهذين الجبلين ، فيبدو أنه في الاعتقاد الشعبي لدى أهل (عصيرة) و(وادي الحسيني) عامة ، أن هذين الجبلين ظهرا كأنها من الحجاج القادمين إلى مكة في رحلة الحج ، لكنها عند عودتهما من هذه الرحلة، بقيا في المكان ولم يغادراه " قبل الفجر غادرت المكان، تاركة طفلين من أطفالها، هما عكوة الشامية و عكوة اليمانية ، وبقيا هنا مخلصين لتلك الرحلة الغابرة"(148).

وهذا يدل على أن روحاً شعبية خيالية ترتبط بهذين الجبلين ، وأيضاً ربما تعطي لهما شيئاً من القداسة والاحترام والتبجيل ، بدليل ربطهما برحلة الحج ، وكأنهما اكتسبا هذا التبجيل من هذه الرحلة المقدسة ، وبصفة عامة يمكن القول إن الجبال في الرواية وردت في حالتين: الأولى: أن هناك أسماء جبال أخرى لم يكن لها تأثير، كجبال (أمعارضة) و(العبادل) و(عتبان)، والثانية: أن هناك جبالاً لها تأثير قوي وواضح على الشخصيات والأحداث ، مثل جبل (ساق الغراب) و جبل (امدقم) و (عكوة)، فالأولى ذكرت على سبيل الحصر و التنوع و لم تذكر على سبيل الدلالة القوية .

(4) الميدان:

ودلالة الميدان دائماً ما تكون على التجمع والحشد، أي تجمع الناس في مكان عام مفتوح لأمر جلل ، فصحیح أن الميدان قد يكون مكاناً لعبور الناس ، لكنه

((147)) - نفسه ، ص 161

((148)) - رواية ساق الغراب ، ص 286

يحمل دلالة أخرى على استحضار الأحداث الكبرى والاستعداد لها، وهذا ما حدث في بداية الرواية ،عندما استنفر الشيخ (عيسى) أهل قريته؛ ليتجمعوا في الميدان ، ويأتوا بسلاحهم ويبدأوا في حرب القادمين الجدد ، إذن الميدان يمثل الاستنفار، ويمثل الحشد، ويمثل الصوت الجماعي ، والتكتل في شكل جماعي واحد .

أ- **ميدان (قنيدة):** وقد وصف الكاتب الميدان وصفاً دقيقاً، مما يدل على أهميته، وأنه يقع في منتصف القرية، وهذه العبارة ليست عشوائية ؛ لأنها تعطي دلالة على أن الميدان كان مكان التجمع عند الشدائد، فهو مظل على القرية من كل جوانبها " عصر ذلك اليوم كان الجميع في "قنيدة" ، ميدان التجمع الواقع في منتصف القرية من الناحية الجنوبية ، حيث مطلقاً على الوادي والمزارع ، التي تموج على جانبيه ، بعرايس الذرة ومزارع البقول "(149) وهنا يحدد الكاتب اسم الميدان (قنيدة) ، و يصفه صراحة بأنه المكان التجمع ، ويحدد موقعه في منتصف القرية من الناحية الجنوبية.

فكان من الممكن أن يذكر الميدان دون تحديد اسمه ، لكن الكاتب كعادته يميل إلى التوثيق والدقة في ذكر أسماء الأماكن، ومنها ميدان (قنيدة)" حين وصلت شريفة في مهمتها إلى ميدان قنيدة ، حيث استطاعت أن تدفع بين قدميها تياراً يجون في تردد "(150)، وهو يذكر الميدان مرة أخرى باسمه، رابطاً إياه بدلالة الحشد والتجمع ويقول: " الرجال خرجوا يحتطبون ويجمعون الأخشاب ، في وسط ميدانهم قنيدة، ثم أوقدوا ناراً هائلة "(151).

ب- **ميدان المسحر:** لم يكتف الكاتب بذكر ميدان قنيدة ، بل ذكر ميادين أخرى ومنها ميدان المسحر "وانصرافه إلى ميدان المسحر، وانشغاله نهائياً بهذه اللعبة وغيرها"(152) ، ويبدو أن هذا الميدان كان هامشياً كمكان مفتوح ، وأن ميدان (قنيدة) هو الميدان الرئيس، الذي يتجمع فيه الناس ، ويحتشدون للأمور الهامة

((149)) - المصدر السابق ، ص 115

((150)) - رواية ساق الغراب ، ص 269

((151)) - المصدر السابق ، ص 121-122

((152)) - السابق نفسه ، ص 190

والضرورية، كحالة الحرب وغير ذلك من الأمور العظيمة، في حين أن ميدان (المسحر) كان مكان تجمع، للهو واللعب وممارسة أنشطة اجتماعية خفيفة .

(5) السوق: ودلالة السوق بصفة عامة هي أنه مكان لممارسة نشاط تجاري واقتصادي ، وهو يمثل الحياة الحقيقية بكل صخبها وضجيجها ، وفي السوق تظهر أخلاق الناس في البيع والشراء والمعاملة وغير ذلك ، ولا تخلو قرية أو مدينة من وجود السوق ، فهو مكان مركزي مفتوح ضروري للحياة ، وقد ذكر السوق في الرواية في أكثر من موضع ، منها أن هناك سوقاً تقام كل يوم ثلاثاء، يسمى (سوق صبياء)، تجتمع فيه أهل القرى المجاورة للبيع والشراء ، وهناك وصف للعادات والتقاليد التي تمارس في (سوق صبياء) وأيضاً تحديد بعض ما يتم شراؤه من سلع وبضائع.

يقول الكاتب "تشهد قرية عصيرة يوم الاثنين مساءً، إقبال أناس مسوقين من قرى الوادي الشرقية، و من ساق الغراب ، والذين ينزلون للمبيت في القرية ، ثم يبكرون في الذهاب صبيحة الثلاثاء إلى سوق صبياء " (153) ، فهنا وصف الكاتب وقت تجمع الناس للذهاب إلى السوق وهو مساء الاثنين ، على الرغم من أنه يقام يوم الثلاثاء ، وحدد مكانه بدقة في أنه في (صبياء) ، ولا يقتصر الانتفاع به والتردد عليه من قرية واحدة، وإنما يأتيه الناس من كل القرى المجاورة.

وقد ارتبط السوق كمكان مركزي بجزء من العادات و التقاليد ، التي يحرص عليها أهل هذه القرية ، ومنها إعطاء أهل القرية جزءاً من حصادهم للأم (صادقية)، حتى تبيعه في هذه السوق ، يقول الكاتب: " ظلّ الناس على عادتهم السنوية، يؤدّون جزءاً يسيراً من حصادهم للأم، التي تبيعه في سوق صبياء، بمساعدة معاونيها، وبرئاسة حفيدها حمود في السنوات الأولى على عودتهم من الهربة" (154) .

(6) التل / تل شارق: بصفة عامة يمكن القول إن الرواية قد رسمت ملامح المكان الجغرافية المتنوعة، ما بين أرض سهلية ، وما بين

((153)) – نفسه ص 148

((154)) – نفسه ص ، ص 176

جبال ووديان وتلال ، والتل هو أقل من الجبل ، حيث يعتبر جزءاً مرتفعاً من الأرض، لكن بشكل أقل من ارتفاع الجبل ، ونلاحظ أن التل لم يذكر كثيراً إلا (تل شارق) ، والذي أظهر الكاتب سبب تسميته باسم بندقية (بن شامي) ، يقول: "وقد أسموا ذلك التل شارق ؛ تيمناً ببندقية بن شامي، التي ينزع اسمها هذا أرواحهم إلى استشراف يوم عظيم قادم لا محالة" (155).

ونفهم من ذلك أن تسمية الأماكن لها في أحيان كثيرة ما يبررها، مثل تسمية (تل شارق) على اسم بندقية ، وكأنه من خلال هذه التسمية يستشرفون الحرب ويستعدون لها ، وهنا يثار التساؤل ماذا كانوا يطلقون على هذا التل قبل تسميته باسم بندقية (بن شامي) ؟ أغلب الظن أنهم لم يطلقوا عليه اسماً ، وإلا ذكره الكاتب ، وبالإضافة إلى دلالة اسم التل على استشراف الحرب ، أصبح هذا المكان موضعاً لدفن الموتى، يقول الكاتب "مرة أخرى وجدوا قبراً معداً لميتهم في تل شارق، وقد أخبرتهم الأم بذلك" (156) ، ويقول: "أعلنت دفن الجثمان إلى جوار ابنها أعلى تل شارق" (157) ، ونفهم من ذلك أن (تل شارق) قد دفن فيه أكثر عائلة (عيسى الخير) ، مما يعني أنه موضع قداسة وتوقير ومهابة تكتسبها المواضع التي يتم فيها دفن الموتى.

وقد ارتبط أيضاً اسم (تل شارق) بأنه مكان يعتليه بعضهم؛ للدعاء والتضرع لله مثل بقية الجبال ، وهذا ما كانت تصنعه الأم (صادقية) "كان ذلك في مساء صعدت فيه الأم تلّ شارق، و شرعت تنادي ماء السماء ، وتجيّش جلاميد ساق الغراب وجبل امدقم" (158)، فالتل في هذه المواضع قد اكتسب دلالة الاستعداد للحرب بسبب تسميته ، ودلالة الهيبة والوقار بسبب دفن الموتى، ودلالة التضرع والدعاء من خلاله لنزول المطر .

(7) المخلاف : والمخلاف السليماني هو ما " يطلق عليه حالياً مقاطعة جازان، وتقع في الركن الجنوبي الغربي من المملكة العربية السعودية ..، وهي

((155)) - رواية ساق الغراب ، ص 145

((156)) المصدر السابق ، ص 153

((157)) - السابق نفسه ، ص 275

((158)) - نفسه ، ص 207

جزء من تهامة عسير⁽¹⁵⁹⁾، وقد ورد ذكره في الرواية أكثر من 14 مرة، وهذا دليل على أهمية المخلاف، كاسم ومصطلح قديم للتعريف بالمنطقة ، ودليل على البعد التاريخي في ذكر الأسماء القديمة .

والجدول التالي يبين عدد مرات ظهور اسم المكان في الرواية: ومن خلال ما سبق استنتج ما يلي:

- 1- أن أكثر أسماء الأماكن التي وردت في الرواية هي (عصيرة)، حيث جاءت حوالي 141 مرة ، وهذا يدل على أن (عصيرة) تعتبر مكاناً مركزياً في الرواية ، والملاحظة الثانية الخاصة بعصيرة أن الكلمة جاءت مضافة إلى كلمات أخرى ، أو مرتبطة بها ، وأحياناً تأتي منفردة، فيقال: عصيرة أو قرية عصيرة أو أهل عصيرة ، وهذا يدل على تنوع دلالي عندما تضاف كلمة عصيرة إلى هذه الكلمات تمنحها دلالات أخرى جديدة .
- 2- ويأتي (وادي الحسيني) في المرتبة الثانية من حيث ورود اسمها كمكان رئيسي ومؤثر ، حيث ذكر حوالي 70 مرة ، وهذا يدل على أن (وادي الحسيني) يمثل حاضنة مكانية كبرى ، لعدد من القرى المجاورة، التي تنضوي تحت مظلة هذا الوادي .
- 3- ثم يأتي جبل أو جبال (ساق الغراب) في المرتبة الثالثة، حيث ذكرها 43 مرة ، وهذا يعطينا دلالة على أهمية هذا الاسم ، وأنه يمثل منطقة أساسية في تنامي الأحداث وتطورها ، وليس أدل على ذلك من أنه قد سمى الرواية باسم هذا الجبل .
- 4- ويأتي في المرتبة الرابعة (جبل عكوة) ، إما مفرداً ، وإما بشكل مخصص بعكوة اليمانية أو الشامية ، فقد وردت 33 مرة ، وهذا يعطي للجبلين أهمية مكانية ، وتأثيراً في حركة الأحداث وتأثيراً على الشخصيات أيضاً.

((159)) – المداح ، أميرة علي ، المخلاف السليمانى تحت حكم الأدارسة ، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه جامعة أم القرى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية 1406 / 1985]

- 5- و يأتي في المرتبة الخامسة (صبياء) ، والتي ذكرت 28 مرة ، وهذا دليل أيضاً على أن (صبياء) يعد مكاناً أساسياً يساهم في تصعيد وتنامي الأحداث ، على اعتبار أنها قرية منافسة لقرية (عصيرة) ، حيث يوجد بينهما صراعات ونزاعات .
- 6- وفي الأخير يمكن القول بأن نسبة ورود أسماء الأماكن في الرواية ، قد تفرقت واختلفت بين اسم وآخر.

ثانياً : المكان المغلق:

وهو المقابل للمكان المفتوح ، ولا يتصور أحدهما دون فهم الآخر ، فإذا كان المكان المفتوح يمثل الفضاء الأوسع ، والذي لا يحده حدود ، فإن المكان المغلق هو " مكان العيش والسكن ، الذي يؤوي الإنسان، ويبقى فيه فترات طويلة من الزمن ، سواء بإرادته أم بإرادة الآخرين، لهذا فهو المكان المؤطر بالحدود الهندسية والجغرافية، ويبرز الصراع الدائم القائم بين المكان كعنصر فني، و بين الإنسان الساكن فيه." (160).

والمكان المغلق له مقاييسه ومعاييره ، والتي تجعله واضحاً ، ولا بد لكي نتعرف على مفهوم المكان المغلق من أن نقارنه بالمكان المفتوح ، حيث أن هذه الأماكن المغلقة "تخضع في تشكيلاتها أيضاً إلى مقياس آخر ، مرتبط بالاتساع والضيق والانفتاح والانغلاق ، فالمنزل ليس الميدان، والزنازة ليست هي الغرفة ، لأن الزنازة ليست مفتوحة دائماً على العالم الخارجي بخلاف الغرفة ، فهي دائماً مفتوحة على المنزل ، والمنزل على الشارع ، وكل هذه الأشياء تقدم مادة أساسية" (161).

ومن خلال هذا التعريف نجد أن المكان المغلق ليس مفتوحاً على العالم الخارجي ، وبمعنى آخر هو المكان الذي تحده حدود تفصله عن هذا العالم، مثل الجدران والسقف بالنسبة للمنزل .
أمثلة على الأماكن المغلقة في الرواية :

((160)) _ عبيدي مهدي، جمالية المكان في ثلاثية حنا مينة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب،

دمشق، 2011، ص44

((161)) - حميد لحميداني ، بنية النص السردي، ص 72

(1) **البيت:** البيت واحد من أهم الأماكن المغلقة ؛ لما له من دلالات وتأثيرات، فهو "واحد من أهم العوامل التي تدمج أفكار وذكريات وأحلام الإنسانية ، ومبدأ هذا الدمج وأساسه هما أحلام اليقظة ، ويمنح الماضي والحاضر والمستقبل البيت ديناميات مختلفة ، كثيراً ما تتداخل أو تتعارض ، وفي أحيان تنشط بعضها بعضاً ، ففي حياة الانسان ينحي البيت عوامل المفاجأة ويخلق استمرارية ، فبدون البيت يصبح الإنسان كائناً مفتتاً" (162) ، وقد جاء البيت كمكان في رواية (ساق الغراب) ومنها ما ذكره الراوي ، وإن كان مضافاً إلى الشيخ ، حيث ورد بعبارة (بيت الشيخ) ، فلم يذكره مستقلاً ، وقد ذكر كلمة البيوت جمعاً ، فبيت الشيخ هو المكان الذي يتجمعون فيه للوليمة والاحتفال " عند تمام العشاء ، أقبل الناس إلى بيت الشيخ ؛ لتناول الوليمة المقامة احتفالاً بنهاية الحصاد" (163) ، ويؤكد في موضع آخر على أهمية بيت الشيخ في مسألة التجمع عند المناسبات "وحدها تلك المناسبة ومثيلتها، كانت تلمّ رميمهم ، وتجمع ببيت الشيخ جيلاً جديداً ما عاد له قيمة تذكر" (164).

أما إذا ذكر كلمة البيوت ، فقد جاءت في موضع من المواضع التي تظهر دلالات الشدة والجوع ، فقد أكلوا الطين من البيوت عند الجوع الشديد "عندما كثر الجوعى عن أسنانهم من شدة الفاقة، والتهموا قطع الطين في البيوت والطرقات" (165) ، مما يعني أن البيت لم ترد كدلالة على التجمع الأسري الحميمي الذي يجمع أفراد أسرة واحدة، في حين أن كلمة الدار كانت أقوى في التعبير عن هذه المعنى كما سنرى.

(2) **الدار:** الدار اسم مكان مغلق ذكر في الرواية في عدة مواضع ، وتعني موضع الإقامة والاستقرار ، أو نسبة المكان إلى شخص ما ، فيقال دار فلان ، كما عبر الكاتب عن ذلك في بعض المواضع ، مثل

((162)) - غاستون باشلار ، جماليات المكان ، ص38

((163)) - رواية ساق الغراب ، ص 172

((164)) - المصدر السابق ، ص 196

((165)) - السابق نفسه ، ص 199

حديثه عن دار المقري " تلك الليلة تدافع المتضررون في دار المقري" (166) .

ويقول الراوي أيضاً "نبّهم الحريق إلى ما اقترفوه، مقتاً لا مثيل له في حقّ بلادهم ، لكنّهم رابطوا إلى دار المقري" (167) ، وذكر أيضاً "كان يحقّ لمن خبّا سرّه كلّما حصلت له تلك الحادثة ، أن يستشيط غيظاً في دار المقري في ليلة الحريق" (168) ، وقد لاحظت الباحثة أنه في المرات التي استخدمت فيه كلمة دار المقري ، كانت تحمل معنى سلبياً ، فيه نوع من النفور من المقري ، والتمرد على سلطته ، وعدم الاستجابة لهذه السلطة، فكلمة الدار في الرواية لم تستخدم بالمعنى الاجتماعي الذي يضم أسرة تستقر وتقيم فيه ، وهذا المعنى الإيجابي مفتقد في الرواية .

(3) المسجد: كدلالة عامة يعني مكان العبادة ، ويعني أيضاً مكان التجمع واللقاء الاجتماعي، على اعتبار أنه قد يتم فيه مناقشة الأمور، التي تخص القرية أو تخص أهل القرية ، وقد وردت كلمة المسجد في سياق المدح لوصف (بشيش) في أنه كان من رواد المسجد ، كما كانوا يتغنون باسمه:

"ودّعوا لي بشيش مسك في لبابه
ودّعوه دُرّة المسجد" (169).

وهناك أيضاً ورد في الرواية ما يعبر عن أن المسجد كان مكاناً للنقاش والاختلاف في الأمور التي تخص القرية ، حتى أنه شهد بعض المهاترات في هذا النقاش " انقلب المسجد إلى مهاترات وهمهمات متواصلة ، حيث لاقى اعتراض بخيت قبولاً لدى البعض" (170) .

وكان المسجد أيضاً مكاناً لإقامة الدعاة ، الذين ترسلهم الإمارة إلى عصيرة؛ لدعوة الناس إلى الاستجابة لأفكارهم ، يقول الراوي: "لم يمض شهر على

((166)) - نفسه ، ص 194

((167)) - رواية ساق الغراب ، ص 194

((168)) - المصدر السابق ، ص 195

((169)) - السابق نفسه ، ص 163

((170)) - نفسه ، ص 204

التفكير بإرسال دعائها إلى عصيرة، إلا ومحمد المصلح أو المقرئ يُقيم في مسجدها⁽¹⁷¹⁾، وبذلك تتنوع دلالة المسجد كمكان مغلق ، فهو مكان العبادة ويسهد لمن يرتاده بالتقوى والصلاح ، وهو أيضاً مكان لاجتماع أهل القرية في مناقشة أمورهم ، وكذلك مكان لنشر دعوة الإمارة وبسط سلطانها .

(4) **الإمارة:** الإمارة لها دلالتان ، يقصد بالأولى: الإدارة والسلطة صاحبة القرار ، وقد يقصد بها المكان الذي يتخذ لصنع القرار ، فهي تصلح أن تكون مكاناً مغلقاً، إذا كانت تعني المكان الذي يصدر منه الأمير ورجاله قراراتهم "حينما أعلن الأمير عن نيّة الإمارة في شقّ غبار عصيرة بواسطة المقرئ"⁽¹⁷²⁾، وهي أيضاً مكان السيطرة على الخارجين على سلطانها " عادت الإمارة في قرار القبض على الخارجين على سلطان الله كما أعلنت عصرًا ، أولئك الذين أثاروا الفتنة من المسجد"⁽¹⁷³⁾.

ودائماً ما يظهر في المقابل أنه المكان الذي يعلن أهل القرية رفضهم له وتمردهم عليه ، يقول الكاتب: "كان لأحد أن يستهجن ما قامت به الأم ، رغم أنه خادم ينتمي للإمارة ، التي آوته منذ طفولته"⁽¹⁷⁴⁾، فالأم (صادقية) دائماً ما تتمرد على الإمارة ، وتواجه من ينتمون إليها أو يخدمونها بالغضب والسخط، وبذلك ندرك أن هناك دلالتين متقابلتين ، الأولى : أن الإمارة مكان صناعة القرار والسلطة الجديدة ، لدى من ينتمون إليها ويخدمونها ، والدلالة الثانية: أنها موضع الرفض وعدم القبول ، بل والتمرد عليها ومحاربتها ورفض من ينتمون إليها .

((171)) - نفسه ، ص 180

((172)) - نفسه ، ص 187

((173)) - رواية ساق الغراب ، ص 206

((174)) - المصدر السابق ، ص 189

المطلب الثاني: نمط المكان بين الواقعي وغير الواقعي :

يمكن تقسيم المكان في الرواية إلى نوعين رئيسيين بناء على واقعيتها أو تخيلها: أولاً : المكان الواقعي : وهو المكان الموجود في العالم الحقيقي ، ويمكن للقارئ التعرف عليه أو تخيله بسهولة ، النوع الثاني : المكان غير الواقعي أو الخيالي : وهو المكان الذي لا وجود له في العالم الحقيقي و هو من ابتكار الكاتب .

أولاً: مفهوم المكان الواقعي :

يسهم المكان الواقعي في تشكيل الأحداث في الرواية ويحدد مسارها ، ويؤثر أيضاً على سلوك الشخصيات وتطورها ، حيث يضيف طابعاً من الواقعية و يساعد القارئ على التماهي مع الأحداث والشخصيات، وقبل أن نعرف المكان الواقعي علينا أن نعرف الواقع ذاته ، حيث أن "الواقع عبارة عن شبكة من العلاقات المادية : إنسانية ، واجتماعية ، وحضارية ، وثقافية ، واقتصادية ، وسياسية، والواقع يحدد العلاقة التي تربط كل منهم بالآخر"⁽¹⁷⁵⁾ ، أما بالنسبة إلى المكان الواقعي في البناء السردى للرواية، فقد ذهب البعض إلى اعتبار المكان داخل الرواية خيلاً ومن صنع الكاتب ، في حين أن المكان الواقعي فقط هو الذي يعيش فيه القارئ أثناء قراءته للرواية ، يقول ميشيل بوتور: " إن قراءة الرواية رحلة في عالم مختلف عن العالم الذي يعيش فيه القارئ؛ فمن اللحظة الأولى التي يفتح فيها القارئ الكتاب ، ينتقل إلى عالم خيالي من صنع كلمات الروائي ، ويقع هذا العالم في مناطق مغايرة للواقع المكاني المباشر، الذي يتواجد فيه القارئ"⁽¹⁷⁶⁾.

لكن في الحقيقة لا يمكن أن نقصر المكان الواقعي على الأماكن التي يعيش فيها القراء ، بل أيضا يمكن تقسيم الأماكن داخل الرواية إلى قسمين : المكان الواقعي والمكان المتخيل أو الخيالي ، فالأماكن الواقعية هي التي تكون موجودة حقيقة على أرض الواقع ، وتصلح لوصف التاريخ والجغرافية المكانية ، وعندما

((175)) -محمد سبيمان حسن :فضاء المتخيل ، مجلة المعرفة ، دمشق : وزارة الثقافة ، ع (469) :

محبوبة آبادي ، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية ، ص39

((176)) - سيزا قاسم ، مرجع سابق ص 103

نتعامل مع الفن الروائي فإن هنالك قدراً من الخيال ، و من هنا ظهرت فكرة الأماكن الخيالية ، بموازاة الأماكن الواقعية ، وعلينا أن نتساءل : هل استخدم الكاتب (يحيى امقاسم) أماكن خيالية لا وجود لها؟ ، أم أنه اقتصر على الأماكن الحقيقية الواقعية في روايته؟ وهذا ما ستجيب عنه الباحثة فيما يلي، من خلال اختيار عدد من الأماكن ، مثل: عصيرة - صبياء - ووادي الحسيني - وجبل ساق الغراب

شواهد الأماكن الواقعية من الرواية :

1- عصيرة : و(عصيرة) -كما ذكر سابقاً - هي إحدى قرى (وادي الحسيني)، وهي أيضاً مجموعة من القبائل ، حيث "يسكن حول مدينة صبياء وتتبعها إدارياً ، قبائل متناثرة كقبائل عصيرة أو الحسيني ، لا يجمعها إلا مشيخة واحدة"⁽¹⁷⁷⁾.

وبالنظر إلى العبارات التي رسم بها الكاتب ملامح المكان في (عصيرة) ، نجد أنه يميل من خلالها إلى التوثيق والتركيز على ذكر تاريخية المنطقة والمكان ، يقول "(ابن عصيرة) عبارة تجمل كلّ أمجاد عشائره في وادي الحسيني، وتحديدًا في قريته عصيرة ، عاصمة وداعية الوادي"⁽¹⁷⁸⁾ ، فقد استخدم الكاتب هذه العبارات لوصف عصيرة ، مما يدل على أنها حقيقة وواقع موجود ، وفيها دليل على أن الراوي يحاول أن يوصل رسالة مفادها أن عصيرة موجوده في الواقع الحقيقي والجغرافي ، وكان الكاتب أراد أن يستخدم الأسلوب الوصفي الدقيق ، المتضمن الاتجاهات والحدود لتوثيق المكان.

فقد حاول أن يرسم خريطة تفصيلية ، تبين موقع القرية وحدودها مع القرى والأماكن الأخرى ، يقول: "وتمكن بذلك أهل عصيرة من تكتسب مساحة كبيرة إلى واديهم الضخم ، الذي يمتدّ من حدودهم مع صبياء غرباً، إلى منابت جبال عيبان و هروب شرقاً ، وشمالاً إلى وادي نخلان ، ثم جنوباً حتى مطالع ضمد

⁽¹⁷⁷⁾ - معجم البلدان والقبائل ، ص 49

⁽¹⁷⁸⁾ - رواية ساق الغراب ، ص 12

الشمالية"⁽¹⁷⁹⁾، وكل ذلك تأكيداً من الكاتب على واقعية هذه الأماكن ، وأنها ليست خيالية بل موجودة في امتداد الجغرافيا وعمق التاريخ.

2- صبياء: تقع (صبياء) في دائرة الأماكن الواقعية المؤثرة في الأحداث ، وهي الآن تسمى محافظة صبياء " التابعة لإمارة منطقة جازان التي تعد ثانية مدن جازان"⁽¹⁸⁰⁾ ، فقد تحولت من قرية إلى مدينة كبيرة " صبياء بفتح الصاد وسكون الباء ، مدينة داخلية عامرة تقع على شط وادي ضمد ، وتعتبر من أهم مدن المخلاف..، وهي مركز تجاري بين جازان وجدة "⁽¹⁸¹⁾.

وهذا دليل على أنها من الأماكن الحقيقية و الموجودة فعلياً وواقعياً، لكنها في الرواية تظهر باسم القرية ، ذات الطابع الخاص ، حيث أن لها أميرها وشيخها ، وقبائلها التي تسمى باسمها، ويفيدنا الكاتب بأنها على خلاف مع قرية (عصيرة) وأميرها الشيخ (عيسى الخير) ، وعلى الرغم من وجود هذا الصراع بينهما ، إلا أن ثمة علاقة بين القريتين وبين الأميرين أيضاً، يقول الكاتب : "ركب الشيخ عند الظهر دابته باتجاه صبياء، و تحديداً نحو الأمير الذي استقبله برحابة يستحقها"⁽¹⁸²⁾، فعلى الرغم من الخلاف والصراع بينهما نجد أن ثمة احترام وتقدير متبادل بينهما ، إضافة إلى ما يربطهما من علاقات تجارية وعلاقة جوار وانتماء إلى نفس الوادي .

3- وادي الحسيني: ولا يختلف الكلام عن (وادي الحسيني) عما ذكر في (عصيرة) و(صبياء) ، فهو مكان واقعي ممتد جغرافياً في المنطقة، ويضم أكثر من قرية ، وهو في الوقت ذاته مؤثر في سير الأحداث في الرواية ، يقول الكاتب: " والبعض انتشر في مداخل القرى على وادي الحسيني، وداخل الجروف من الناحية الغربية"⁽¹⁸³⁾.

((179)) - المصدر السابق ، 77

((180)) - معجم البلدان والقبائل ، المجلد السابع ، ص 48

((181)) - المخلاف السليماني تحت حكم الأدارسة ، مرجع سابق ص 15

((182)) - رواية ساق الغراب ، ص 13

((183)) - المصدر السابق ، ص 25

4- جبل ساق الغراب: سبق أن ذكرنا أن جبل (ساق الغراب) مكان

مركزي، تعتمد عليه الأحداث في تطورها وتضاعدها ، وهو مكان حقيقي واقعي وليس متخيلاً ، ودائماً ما يحتفي به الكاتب ، حتى أنه أطلقه عنواناً لروايته ، يقول " أن أهل السروات ساق الغراب وأسفلها تهامة في جسارتهم مجتمعين ، يشبهون جملاً ضخماً اقتناه "(184)، ويقول كذلك : "كانت سروات ساق الغراب تفسح من رداءها القاتم كما لو أنها جبين الليل الهائل من الشرق "(185).

5- جبل عكوة (عكوة اليماني و عكوة الشامي)

وهما جبلان ثنائيان يأتي الكاتب بذكرهما عادة مرتبطتين، ومرات بدون ذكر صفة اليمانية أو الشامية ، وفي كل الأحوال نرى الكاتب يذكرهما في مواضع مختلفة، وقد لوحظ أن هذين الجبلين لهما صفة الواقعية ، ولهذا تم ذكرناهما هنا ، وفي نفس الوقت يشهد هذان الجبلان أحداثاً غير واقعية ، حيث ارتبط كل منهما ببعض الأحداث المتخيلة ، يقول : "بل عكوة اليماني ليس يسيراً من جهته الشمالية ، خاصة المسافة التي تفصله عن جبل عكوة الشامية "(186).

ثانياً : مفهوم المكان غير الواقعي :

إن الخيال يستند إلى صور من الواقع ، فليس هناك خيال من الفراغ ، فما نحصل عليه من صور تخزن في الذهن من الواقع الحقيقي ، نقوم فيما بعد بتخيل الأشياء من خلال هذه الصور المخزنة ، وهذا ينطبق على تخيل المكان ؛ ولذلك يرى غاستون باشلار أنه " في دراسة الخيال لا يوجد موضوع دون ذات ، بل إن الخيال بالنسبة للمكان ، يلغي موضوع الظاهرة المكانية _ أي كونها ظاهرة هندسية _ ويحيل مكانها دينامية خاصة _ المفارقة _ وعندما يتحول الخيال إلى شعر ، فهو يلغي السببية، ليحل محلها التسامي المحض "(187) والمكان أحد أهم العناصر في البناء السردي للرواية، سواء أكان حقيقياً واقعياً أم متخيلاً في ذهن

((184)) _ السابق نفسه ، ص 117

((185)) _ نفسه ، ص 36

((186)) _ نفسه ص ، 76

((187)) _ مقدمة كتاب جماليات المكان لغاستون باشلار ، ترجمة: غالب هلسا ، ص 10

الكاتب ، ومهما تخيل الكاتب المكان الذي يكتب عنه ، فإنه لابد أن يستند على أماكن واقعية فإن " أي عمل فني هو نتاج خيال مبدع، لكن هذا الخيال يختلف من فنان إلى فنان إلى آخر ، ومن نوع أدبي إلى آخر ، حيث يكون الخيال لدى الكاتب القصصي، أقرب إلى الواقع بالنسبة إلى الأجناس الأدبية الأخرى ؛ فالمادة القصصية تتجذر في الواقع والحياة الإنسانية ، والمكان أحد العناصر الضرورية والمهمة في البناء القصصي، سواء أكان هذا البناء معبراً عن الواقع المعيش ، أم آتياً عبر المتخيل الذهني للقصص نفسه "(188) ، وعندما نتأمل في المتخيل في الأماكن التي وردت في الرواية ، سنجد أن الكاتب (يحيى امقاسم) قد وضع لمسات خيالية وأسطورية على بعض الأماكن ، أي أنه مزج بين واقعية الأماكن وخياليتها ، وهذا ما تحدثنا عنه سابقاً في (الواقعية السحرية) ، فمن الأماكن الخيالية أو التي اكتسبت الأسطورية :

1- جبل امدقم وقد قيل الكثير عن هذا الجبل ، حتى أنه يعرف في الثقافة الشعبية، بأنه جبل الأساطير ، حيث ذكرت جريدة المدينة في يناير عام 2014 م ، أن جبل (الدقم) تحاصره حكايات الجن وتسكنه الأساطير "ويوجد هذا الجبل في محافظة العارضة بمنطقة جازان ، ويعتبر من الجبال المعروفة منذ القدم ، حيث تدور حوله الكثير من القصص التي تزعم أنه كان وما زال مستعمراً بالجن "(189).

مما يعطي قيمة أسطورية لجبل (الدقم) أو ما يسميه الكاتب في روايته (جبل امدقم) مستخدماً اللغة المحلية في نطق بعض الكلمات ، وفي المخيلة الشعبية كان ثمة اعتقاد أن هذا الجبل له قيمة رمزية أسطورية كبيرة ، وهذا ما وظفه الكاتب في الرواية ، وصنع بعض الأحداث والوقائع المترتبة على هذا المعتقد الشعبي ، حيث أنه يتخيل أن الجن يسكنون هذا الجبل وسماهم (الموالين) ، وجعل علاقتهم ممتدة بالشريف (مشاري) وزوجته (صادقية) ، وكان هذا الجبل مكاناً لدفن بعض من يتعاهدون مع الموالين من الجن ، وقد طلب الموالون أن يدفنوا جثة الشريف (مشاري) لديهم في هذا الجبل، ورفضت (صادقية) ، وهنا طلبوا منها شرطاً يجب تنفيذه إذا أرادت عدم دفنه في هذا الجبل ، وهذا الشرط

((188)) - محبوبة آبادي ، جماليات المكان في قصص سعيد حورانية ، ص 39

((189)) - جريدة المدينة ، <https://www.al-madina.com/article/279979>

أن يسلبوها نظرها وتصبح كيفية ، " هكذا عزّت روحها في نظرها الذي قايسّت به موالين لواديها من جبل امدقم "(190) ، وكذلك كان هناك علاقة أسطورية بين (شريفة) وبين الموالين القاطنين في هذا الجبل "البارحة باتت شريفة على براثن موت عريض، قاده الموالون من جبل امدقم "(191).

2- جبل عكوة اليمانية والشامية: والجبل الثاني الذي امتدت حوله الخيالات والأساطير: جبل عكوة ، وفي الحقيقة فإنه جبلان أحدهما هو (عكوة اليمانية) والثاني هو (عكوة الشامية) ، وقد صور الكاتب هذين الجبلين على أنهما شقيقان ، كانا في طريقهما إلى رحلة الحج منذ وقت بعيد ، ثم استقر بهما الحال في هذا المكان، عند عودتهما من رحلة الحج ، يقول : " كانت الجبال تحجّ كلّ عام إلى مكّة مروراً بهذا المكان ، وفي عام من الأعوام ، وفي رحلة العودة من مكّة ، نامت الجبال هنا، وقبل الفجر غادرت المكان تاركة طفلين من أطفالها ، هما عكوة الشامية و عكوة اليمانية ، وبقيتا هنا مخلّدين لتلك الرحلة الغابرة"(192).

فالجبلان في تصوير الكاتب هما طفلان كانا صغيرين ، ثم استقرا وتمت تسميتهما بهذين الاسمين ، وأثيرت حولهما الحكايات الأسطورية ، يقول: "وتسأله في روحها بحكايته القديمة ، مع أخيه جبل عكوة الشامية، التي سمعتها نقلاً من الأجداد ، إذ كانا جبلين صغيرين"(193) ، ومن ضمن ما ذكر من أمور مرتبطة بجبل عكوة، أنه كان مكاناً لانتحار (حمود الخير) ، فهذا دليل أنه شهد أحداثاً درامية ، تتناسب مع ما كان يحكى عنه من حكايات ، وهنا ندرك أن الكاتب قد استجاب لما يثار في المخيلة الشعبية عن بعض الأماكن ، واستطاع أن يصورها ويدخلها ضمن نسيج القصة وأحداثها .

((190)) - رواية ساق الغراب ، ص 234

((191)) - المصدر السابق ، ص 244

((192)) - رواية ساق الغراب ، ص 286

((193)) - المصدر السابق ، ص 286

الخاتمة والنتائج والتوصيات

تحركت الرواية من خلال أحداثها المتتابعة والمتنامية في فضاء مكاني واسع ، استوعب الكثير من معالم وملاحم تخص المنطقة ، من خلال القرى كقرية (عصيرة) و(صبياء) ، وأيضاً الوديان كوادي الحسيني ، و التلال مثل (تل شارق) ، والجبال مثل جبال (ساق الغراب) وجبال (امدقم) وجبال (عكوة) ، وغير ذلك مما ذكر في الرواية ، فهذه الملاحم المتنوعة طبعت الرواية بطابع المكانية المتميزة ، وجعلت منها رواية تحتفي وتحتفل بالمكان ، وتعطيه اهتمامها الأول والأخير ، ومما سبق ذكره في التمهيد والمباحث التي تضمنتها الدراسة ، استخلصت الباحثة عدة نتائج ، يمكن الحديث عنها فيما يلي:

- 1- برز المكان وتشكيلاته كأحد العناصر الأساسية في رواية (ساق الغرب) ، منذ بداية الرواية ، واستمر في أكثر تفاصيلها وأحداثها ، وهذا يدل على أن الكاتب كان لديه قصد منهجي في استعراض ملاحم المكان، والتعرف على كل ما يتعلق به .
- 2- المكان في الرواية لم يكن مجرد مواضع تذكر ، بدون تأثير أو تأثير ، وإنما تجلى المكان فاعلاً ومؤثراً على بقية مكونات العمل السردى.
- 3- وكان أوضح صور هذا التأثير ما يخص الشخصيات والأحداث ، وذلك كما يلي :

- أثر المكان على الشخصيات من الناحية النفسية والذاتية بشكل واضح ، كما ظهر لدى (صادقية) وشخصية (عيسى الخير) و(بشبيش) و(شريفة) وغيرهم ، فالتحولات التي حدثت لهذه الشخصيات، كان المكان هو العنصر الأبرز في التأثير على وجودها.
- وبالنسبة للأحداث كان المكان حاضناً لها ومعبراً عن تطورها وتناميها ، فما من حدث بارز إلا وكان المكان لصيقاً وحاضراً به ، فالحدث الأكبر في الرواية كان

(الهربة)، حيث بدأ من نقطة انطلاق ووصل إلى نقطة تحول ، بداية من القرية والميدان وحتى جبال ساق الغراب ، وبالنسبة للأحداث الأخرى التي تعلقت بالمكان كجبل (امدقم) وجبل (عكوة) وغيرها ، استولت هذه الملامح المكانية على تطور أحداث الرواية ، ومثال ذلك ميدان (قنيدة) الذي يمثل مساحة التجمع والحشد ، وكذلك (وادي الحسيني) الذي يمثل الوادي الأكبر المركزي ، وكذلك الجبال المختلفة المحيطة بالمكان ، كل ذلك لعب دوراً هاماً في جعل الأحداث تتجسم وتظهر بوضوح .

4- وبالنسبة لتقسيم أنماط المكان وتشكيلاته، كمكان مغلق ومفتوح أو مكان واقعي وخيالي ، استنتجت الدراسة ما يلي :

- كانت الأماكن المفتوحة مسيطرة على العمل الروائي لدي (يحيى امقاسم) ، حيث تحركت الشخصيات وتنامت الأحداث، من خلال فضاء واسع ومفتوح يتناسب مع الطبيعة المكانية الكبيرة والممتدة للمنطقة .
- في حين قلت الأماكن المغلقة – على الرغم من وجود نماذج لها – إلا أنها كانت قليلة ، وكأن الكاتب لم يشأ أن يضيق نطاق المكان ، ويحصره داخل البيوت والأماكن المغلقة .
- أما بالنسبة للأماكن الواقعية ، فقد أخذت مساحة كبيرة في الرواية ، ورسمت معالم جغرافية وواقعية، لأماكن موجودة في الحقيقة ولها تاريخها الممتد.
- أما الأماكن الخيالية التي امتزجت فيها الخرافية والأساطير بالواقعية، فكانت موجودة أيضاً بشكل أقل ، لكنها خدمت الأحداث ، وجعلت الرواية تتسم بما يسمى (الواقعية السحرية) ، التي تعد واحدة من خصائص المكان في هذه الرواية .

- اتسم تصوير الكاتب بالوصف الجمالي لتشكيلات المكان ، بحيث حول هذا الوصف في بعض المواضع إلى لوحات جمالية مغرقة في التفاصيل .

5- وقد استنتجت الدراسة أن لغة الكاتب في التعبير عن المكان، كانت تتميز بما يلي :

- استخدام اللغة الشعرية التي وصلت في بعض المواضع إلى كونها قصيدة نثرية، تصف المكان وتصف الأحداث والشخصيات المرتبطة بها بلغة جمالية مؤثرة .
- تراوحت اللغة المستخدمة في الرواية بين الفصحى والعامية في بعض المواضع ، حيث كانت الحوارات مبنية على المزج بين الفصحى والعامية ، في حين كانت لغة الوصف والسرد لغة عالية محملة بالجماليات.
- وقد اعتمد الكاتب على اللغة المحلية الشعبية، التي عرفت في هذه المناطق، وذلك يؤكد سيطرة العنصر المكاني على تفكير الكاتب ، بحيث حرص على تضمين الرواية العديد من الأهازيج والأغاني الشعبية، التي تقال في مناسبات مختلفة ، إضافة إلى حرص الكاتب على توصيف وتوثيق الكثير من العادات والتقاليد المرتبطة بهذه المنطقة .
- واتسمت لغة الكاتب أيضاً بالكثير من الجرأة في تناول بعض القضايا والمواضيع ذات الحساسية الاجتماعية ، مثلما وجدنا في التعبير عن الختان ، أو عن العلاقة الحميمة الجنسية .

6- يضاف إلى كل ما سبق ، أن المكان لدى الكاتب كان معبأً ومليئاً بالأبعاد المختلفة ، فلم يكن المكان فارغاً من المضمون ، بل كان يتضمن العديد من هذه الأبعاد ، وهي كالتالي:

- كان البعد الجغرافي الذي يتمثل في رسم ما يشبه الخريطة الجغرافية ، والتي تهتم بذكر التفاصيل والاتجاهات هنا وهناك ، حاضراً واضحاً ، وهذا البعد أعطى للأماكن وجوداً حقيقياً على الأرض ، وجعل المتلقي يتخيله بدقة، وكأنه يراه أمامه على شاشة أو في صور ملتقطة .
- وقد تميز الكاتب بأنه مزج وخلط بين مشاعر الشخصيات وأحاسيسها وبين المكان ، وهذا ما تم دراسته في البعد الذاتي والنفسي للمكان ، فلم تكن الأماكن في الرواية صماء أو مجرد أسماء فقط ، بل كانت كأنها شخصيات تتحرك وتتفاعل وتؤثر على بقية العناصر الأخرى.
- حرص الكاتب على تضمين المكان البعد التاريخي في كثير من المواضع ، حتى يصف - بقصد ومنهجية معتمدة لديه - الأماكن بجذورها الممتدة عبر التاريخ ، وكأنه يريد تأكيد أصالة وامتداد هذه المنطقة ووجود تاريخ عريق لها.
- تأثير التشكيل الجمالي على أبعاد المكان الروائي الثلاثة :
قمن ناحية البعد الجغرافي في الرواية ، استطاع الكاتب خلق صورة حية للمكان، و من ناحية البعد الذاتي النفسي يصف مشاعر الشخصيات ، وتأثير المكان عليها وعلى سلوكهم وأفكارهم، أما البعد التاريخي فقد ظهر في ذلك العمق الزمني ، وربط المكان بالتاريخ والعادات والتقاليد .

7- أن التشكيل الجمالي يضيف على الرواية طابعاً مميزاً وفريداً ، ويساعد على إيصال أفكارها و توصيل مدلولاتها للقارئ.

أما التوصيات فيمكن إجمالها فيما يلي :

توصى الباحثة بعدة توصيات :

- 1- دراسة هذه الرواية دراسة جغرافية وتاريخية ، توثق كل ما يتعلق بتاريخ هذه المنطقة التي دارت فيها الأحداث .
- 2- رسم ما يمكن أن نسميه أطلساً لجغرافية المكان .
- 3- بالإضافة إلى توثيق كل ما يخص عادات وتقاليد أبناء هذه المنطقة.
- 4- تسجيل أكثر ما تم تداوله من فلكلور شعبي: من أغاني وأهازيج ورقصات ، تميز بها أبناء هذه المنطقة .
- 5- إضافة إلى توصية أخرى تخص وضع معجم لغوي محلي، يجمع المفردات الشعبية، أو التي تقال باللهجة المحلية لأبناء هذه المنطقة .

قائمة المصادر والمراجع

- 1- إبراهيم أنيس ، وآخرون ، مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، ط 4، (القاهرة، مكتبة الشروق الدولية، 2008)
- 2- أبو أحمد، حامد ، كتاب الواقعية السحرية في الرواية العربية، ط1، (المجلس الأعلى للثقافة القاهرة دت)
- 3- أنطون، نعمه ، وآخرون، المنجد في اللغة العربية المعاصرة، ط1، (بيروت ، دار المشرق ، 2000)
- 4- آل مبارك ، محمد بن عبدالله منور، توظيف اللهجات المحلية في الرواية السعودية: رواية ساق الغراب أنموذجا ، مجلة حقول نادي الرياض الأدبي السعودية عدد 13 ، 2017 م
- 5- امقاسم ، يحيى، رواية ساق الغراب ، ط1، (بيروت ، دار الأدب ، 2008)
- 6- بختين ، مخايل ، تر: يوسف حلاق، أشكال الزمان والمكان في الرواية ، (سوريا، مكتبة الأسد ، 1990)
- 7- الجرجاني، علي بن محمد بن علي، كتاب التعريفات، تحقيق: ابراهيم الابياري، (القاهرة ط 2 ، دار الريان للتراث 1403 هـ
- 8- جريدي، سامي ، الرواية النسائية السعودية: خطاب المرأة و تشكيل السرد ، مؤسسة الانتشار العربي ، بيروت ، 2008 م، ط1
- 9- جيرار جينيت : خطاب الحكاية ، تر: محمد معتصم ، ط2 ، الدار البيضاء ، المغرب ، دت
- 10- الحرز، محمد (٢٠٠٩). رواية "ساق الغراب" تعاضد السرد بين الحس الحنيني والتموضع الشعري" علامات في النقد، جدة، النادي الأدبي الثقافي ، مج ١٨ ، ج ٦٨، ٦٩،
- 11- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء- الزمن- الشخصية)، ط1، (بيروت : المركز الثقافي العربي ، 1990)
- 12- حسين ، عبد الرزاق ، فن النثر المتجدد ، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط1، 1998

- 13- حميد لحميداني، بنية النص السردي : من منظور النقد الأدبي، ط1، (بيروت ، المركز الثقافي العربي، 1991)
- 14- خليل ، عماد الدين ، الحوار في الرواية الإصغار والمؤذنة ، مجلة كلية العلوم الإسلامية ، المجلد السابع العدد الثالث عشر ، 1434 ، 2013
- 15- رحيم ، أحمد ، المصطلح السرد في النقد الأدبي العربي الحديث، دار صفاء للنشر عمان الأردن ط 1 ، 2014 م
- 16- سيزا قاسم، بناء الرواية (دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ) ، ط1، (القاهرة ، مكتبة الأسرة ، 2004)
- 17- عبيدي مهدي ، جمالية المكان في ثلاثية حنا مينة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2011
- 18- عدواني أحمد ، بداية النص الروائي: مقارنة لآليات تشكيل الدلالة، المركز الثقافي العربي ط 1 ، 2011 م
- 19- غاستون باشلار، مت: غالب هلسا ،جماليات المكان، ط2، (بيروت ، المؤسسة الجامعة للدراسات والنشر والتوزيع، 1984)
- 20- فاتح عبدالسلام ، الحوار القصصي ، تقنياته وعلاقاته السردية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط 1 ، بيروت ، 1999م.
- 21- فريحة ، أنيس، نحو عربية ميسرة، ط1، (بيروت ، دار الثقافة ، د.ت)
- 22- القاضي ، محمد وآخرون ، معجم السرديات ، دار محمد علي للنشر، تونس ، ط1، 2010
- 23- ليون إيرل ، القصة السايكولوجية، ترجمة : محمود السمرة ، المكتبة الأهلية ، بيروت ، 1959
- 24- محمد ، ابن منظور، لسان العرب، دار صادر-بيروت ، ط3
- 25- محمد سبيمان حسن :فضاء المتخيل ، مجلة المعرفة ، دمشق : وزارة الثقافة ، ع (469)

- 26- محمد ، قيس عمر ، البنية الحوارية في النص المسرحي ناهض
الرمضاني أنموذجا ، ط1، (عمان، دار غيداء للنشر والتوزيع ،
1433=2012)
- 27- المداح ، أميرة علي ، المخلاف السليمانى تحت حكم الأدارسة ،
أطروحة لنيل درجة الدكتوراه ، جامعة أم القرى كلية الشريعة
والدراسات الإسلامية 1406 / 1985
- 28- مدقن ، كلثوم وآخرون جماليات الوصف في رواية عشي الليل
لإبراهيم الكوني ، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، لنيل شهادة
الماستر في اللغة والأدب العربي ، تخصص أدب عربي حديث
ومعاصر، 2022 م
- 29- مرتاض عبد الملك ، في نظرية الرواية : بحث في تقنيات
السرد، ط1، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،
1998)
- 30- المسدي ، عبدالسلام، الأسلوبية والأسلوب – الدار العربية للكتاب ،
ط3، دت
- 31- منصور نعمان نجم ، المكان في النص المسرحي، دار الكندي للنشر
والتوزيع ،أريد،الأردن، 1999
- 32- نجم عبدالله كاظم ، مشكلة الحوار في الرواية العربية، كلية الآداب
،جامعة بغداد، الأردن، (دت)
- 33- نجم ، محمد يوسف، فن القصة ، ط1، (بيروت ، دار بيروت
للطباعة والنشر ، 1955)
- 34- وهبة، مجدي ، والمهندس، كامل ، معجم المصطلحات العربية في
اللغة و الأدب. ط2، (بيروت: مكتبة لبنان ، 1984)
- 35- ياسين النصير، الرواية و المكان، ط1، (بغداد: دار الشؤون العامة،
1986)